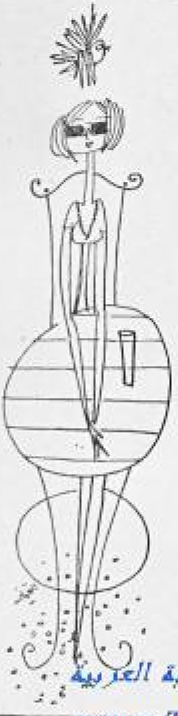


إحسان عبد القدوس...

النظارة السوداء

دار القلم

انى لا زلت مؤمنا بالمبادىء التى تقوم عليها هذه القصـــة ، ولا زلت مؤمنا بالهدف الذى تسعى اليه ، والصراحة التى كتبت بها .. ولكنى اشعر انى أستطيع أن أصل بها الى اعماق ابعد ، وأستطيع أن القى عليها اضواء اكثر ، وأستطيع ان افتح فيها نوافذ جديدة لذهن القارىء ..

***

هل أفعل ؟ ..

انى لو فعلت ، لأصبحت قصة جديدة ، غير القصة التى يريد الناشرون والقراء اعادة طبعها !! ..

وان لم افعل لبدت شخصيتى الحالية التى يراها القارىء فى قصصى الجديدة ، ناقصة مبتورة !! ..

وقد وقع فى هذه الحيرة جميع الكتاب ، وقد فكرت فى أن أنشر صورتى عندما صدرت الطبعة الاولى ، وصورتى اليوم عنـــد اصدار الطبعة الثالثة ، وأقول : ان الفرق بين الطبعتين هو الفرق بين الصورتين !! ..

ورغم ذلك فانى أفضل أن اترك القصة كما هى ، فانى لا زلت أحب شبابى .. وأحب صورتى وأنا بالبنطلون القصير ! ..

« احسان »

هذا النوع من القصص

كثيرون من القراء يضنون بقلمى أن يكتب قصة تدور حوادثها بين رجل وامراة ، بعد أن تعودوا منه الا يكتب الا فى المســـائل الوطنية ..

وانا كاتب أهوى الكتابة قبل أن احترفها ، والكاتب المخلص كالرسام والموسيقى والمثال ، كلهم فنانون يعبرون عن عواطفهم ، والعاطفة الوطنية لا تنفى العاطفة المجردة التى تدور مع الاحساس بالحياة .. والرسام الذى يرسم صور الثورة وصور الحرية ، لا ينقص من قدره أن يرسم صورة امراة عارية ..

وقد رسمت بقلمى صورة الثورة ، وصورة الظلم الذى يحيق بمصر ، وصورة اللصوص الكبار الذين يستنزفون دمها ، ولن يوقفنى عن رسم هذه الصور أن ارسم بين الحين والحين صورة رجل وامراة يعيشان فى قصة ..

وقد كان جبريل دانزيو بطل حركة التحرير الايطالية يكتب أشعارا عن الحب الملتهب فى أشد أيام الضيق التى مرت بوطنه .. وغاندى بطل الهند ، لم تمنعه رسالته الوطنيـــة من ان يكتب فصولا طوالا فى كتابه « تجاربى مع الحقيقة » عن النساء اللائى مشن فى حياته وتركن فيها قصص غرام عنيف ..

وشوقى الشاعر الذى قال « وما نيل المطالب بالتمنى » قال أيضا « مضناك جفاه مرقده » !

والمتنبى الثائر المتمرد كان ينشد أناشيد الحب والغزل بين الحين والحين ، وشوبان الذى كتب لحن الثورة البولونية كتب أيضا لحن غرامه بصديقته جورج صاند وكتب الحانا يرقص لها الشعب ، ودزرائيلى كان الى أن تولى رئاسة الوزارة البريطانية يكتب روايات غرامية رخيصة يبيعها للناس ، وماوتسى تونج قائد الثورة الشيوعية فى الصين لا يزال حتى اليوم يكتب اشـعارا غرامية يتغنى بها الثوار . وبدوفيسكى رئيس جمهورية بولونيا لم يعبه لدى بنى وطنه انه كان يحترف عزف « البيانو » وانه ظهر عازفا وممثلا فى أحد الافلام السينمائية !

***

كل هؤلاء كانوا صادقى العاطفة ، سواء عندما هتفوا بالحرية لوطنهم أو عندما ترنموا بأناشيد الحب والغرام .. انهم فنانون صادقون ، ولن يصدق أحد منهم فى وطنيته الا اذا صدق فى التعبير عن كل احساس يثور فى نفس الرجل ..

انى أستطيع أن ادعى الوقار ، واستطيع أن أضغط على قلمى حتى لا يكتب الا فى حدود نطاق مرسوم .. ولكننى لا أريد لأنى أقوى من الادعاء ، وأقوى من الكذب ، وأقوى من أن أخجل من فنى ..

اننى كاتب قد اموت فى سبيل المبادىء التى ادافع عنها ، ولكنى لا اقبل أن استغل هذه المبادىء لأبدو أمام القـارىء فى صورة غير صورتى ..

ان قراء آخرين قد يغفرون لى كتابة القصة ، ولكنهم لايغفرون لى كتابة هذا النوع من القصص !

وقد كتب بلزاك هذا النوع من القصص منذ مائة عام ، ولم يقل أحد ان بلزاك كان كاتبا منحلا ، بل ان قصص بلزاك لم تعش حتى اليوم الا لأنها من هذا النوع ! ..

***

والأدب العصرى كله .. الادب الفرنسى والادب الروسى والادب الأمريكى والانجليزى .. هو ادب صريح .. أدب لا يحتمـل النفاق .. أدب يتطلب من الـكاتب أن يكون طبيبا يصف الداء والدواء .. وعندما تتعرى امرأة أمام الطبيب ليتحسس جسدها بأصابعه ، لا يعتبر انه خرج عن التقاليد ، ولا عن العرف ، ولا عن الدين ..

انى فى هذا الكتاب حاولت أن أكون كاتبـا ، وحاولت أن أكون طبيبا ..

« احسان عبد القدوس »

عذرا .. وشكرا ..

سيلومنى البعض على نشر هـذه القصة .. سيقولون كيف اكتب عنها بعد كل ما كان بينى وبينها .. لقد كنت لها اخا وابا وصديقا واستاذا ولا ازال .. ورغم هذا ، فهذه هى قصتها ، انشرها على النـاس بكل حروفها .. وبكل ما فيهـا من هوس وجنون .. انشرها وانا فخور بها .. بالقصة وببطلة القصة ..

وقد حذروها منى عندما عرفتها .. وقالوا لها انى اضع قلمى امام قلبى وفوق الصداقة والأخوة ، واننى سأتخـذ منها يوما موضوعا لقصة استبيح بها كل اسرارها .. وقالوا لها أكثر من ذلك ـ غفر الله لهم ـ ورغم ذلك فقد قبلت صـداقتى ، وقبلت ان تقف امامى عارية من كل أسرارها لأرسم لهـا بقلمى هـذه القصة ..

***

وقد أردت أن أقرأ لهـا ما كتبت ، ولـكنها سـدت أذنيها بأصبعيها ، وقالت وابتسامتها الطيبة فوق شفتيها : « لا أريد أن أسمع .. دع النـاس يسمعون ويحكمون .. ويكفينى انى اوحيت اليك » ! ..

من هى ؟ ..

ان احدا لا يكاد يسمع بها الآن ولـكنها منذ خمس سـنوات كانت ملء عيون القـاهرة .. وكنت تلتقى بها دائما فى النوادى الراقية ، والليالى الساهرة والفنـادق الـكبرى ، وحفـلات الافتتـاح .. وكانت ترقص دائما ، وتضحك دائما ، وتشرب دائما ، وتأكل دائما .. وتضع على عينيها دائما نظارة سوداء ..

ولم يكن أحد يعلم انها عندما ترقص لا تحس بشيء الا بأن هناك ذراعا ثقيلة تحيط بخصرها ، وعندما تضحك لا تحس الا بأن شفتيها قد انفرجتا ، وعندما تشرب لا تحس الا بما يعقب الشراب من صداع فى آخر الليل ، وعندما تأكل لا تحس الا بأن هناك أشياء تتساقط فى معدتها ، ولم يكن أحد يعلم ان هـــذه النظارة السوداء لا تلقى ستارا أسود أمام عينيها فحسب ، بل انه ستار ينسدل أمام قلبها وعقلها وحسها ..

كانت شيئا يدب على الارض .. كانت حيوانا جميـــلا أليفا محروما من كل المتع التى خص بها الله الانسان .. وكانت تعتقد ان هذه هى الحياة ! ..

اما الآن فقد أصبحت فتـــاة أخرى .. انسانة تحس بالألم والسعادة .. انها تحس بالابتسام ولـكنها قلما تبتسم ، وتحس بنشوة الشراب ولـكنها لا تشرب ، وتطوف مع الأحلام عنـدما ترقص ، ولـكنها لا ترقص ، وتتذوق الطعام عندما تأكل ولـكنها لا تأكل الا النزر الذى يمد فى حياتها .. ثم ان نظـــارتها لم تعد سوداء ! ..

هذه هى البطلة ..

وقد مر عليها ـ فى قصتها ـ كثير من الأبطال ، وانتهت الى بطل واحد .. انه شاب تتحدث عنه مصر منذ عامين .. تتحدث عنه كسياسى وفنان وعضو مجلس نواب ، وقد فتح لى قلبـه وائتمننى على قصته كما ائتمن عليها صديقى ونقيبى فكرى أباظة ولـكنى وحدى أبحت لنفسى نشرها لأنى الوحيـــد الذى يعلم ان القصة ليست قصته ولـكنها قصتها ..

فعذرا له ، وشكرا لها ..

« احسان »



١

هذه المبادىء ، وهذه المثل العليا ؟ !

الشرف .. الأمانة .. الاخلاص .. الوطنية .. الشهامة .. الوفاء .. النزاهة .. الخ ! ! ..

هل وضعت لتكون نظما مقررة ترتب حيـــاة كل انسان ، وتحدد تصرفاته ، وتحكم قلبه وعقله ؟ !

لا ! ! ..

ان هذه المبادىء والمثل العليا وضعت لاستعمالها وقت الحاجة فقط ، فان لم نحتج اليها فلا نؤمن بها ، ولا نستعملها ! !

ان الزوجة الفقيرة ـ مثلا ـ أشد اخلاصا لزوجها وأكثر عفة من الزوجة الغنية ، لماذا ؟ ..

لا لأن الفقيرات خلقن من طينة غير طينة الغنيات ، ولا لأنهن ملائكة والأخريات من أتبـــاع الشيطان ، بل لأن الزوجة الفقيرة فى حاجة الى زوجها ليعولهـــا ويصون لها بيتها ، فهى فى حاجة الى الاخلاص له حتى لا تفقده ، والخوف من أن تفقده يزيدها اخلاصا وعفة .. أما الزوجة الغنية فليست فى حاجة ملحة الى زوجها ، ولا تخاف أن تفقده ، فهى تستطيع دائما أن تجد غيره ،

وتستطيع دائما أن تعول نفسها ، وتعول بيتها ، وقد تعتقد ان ما يربطها بزوجها ليس فقط شخصها بل ايضا ثروتها ، وهى لذلك ليست فى حاجة الى الاخلاص ، ولا الى العفة ، قدر حاجة الفقيرة اليهما ، وهى لا تؤمن بهما هذا الايمان المجرد القوى ، انما هو ايمان وقتى يحدده مزاجها ورغبتها فى الابقاء على زوجها ! ! ..

***

والرجل الفقير ـ مثلا أيضا ـ يؤمن بالأمانة ، والشرف ، والنزاهة ، ويطالب الناس بالايمان بها ، لا لشىء الا ليحمى معاملاته البدائية الصغيرة ، ويحمى متاعه التافه ، ويحمى حقوقه ، ثم ليحمى نفسه من أحكام القانون وسلطان الحكومة ، اما الرجل الفنى فليس فى حاجة الى الأمانة ولا الشرف ولا النزاهة ، فهو يضع أمواله فى بنوك محصنة ، ويضع متاعه وراء أسوار عالية ، ويستخدم نفوذه للتخلص من أحكام القانون وسلطان الحكومة ..

والوطنية والحرية .. ان لهما فى الدول الضعيفة معنى جلاء الجيوش الأجنبية ، ولهما فى الدول القوية معنى الاستعمار والغزو .. والشعب الذى يهتف فى مصر مطالبا بالجلاء ، يقابله شعب آخر يهتف فى بريطانيا بالاحتلال .. وذلك لأن مصر فى حاجة الى الجلاء ، وبريطانيا فى حاجة الى الاستعمار والى الامبراطورية ليزداد شعبها ثروة وقوة ..

وهكذا ..

هكذا كل هذه المبادىء .. انها العصا التى يستند اليها الضعيف ، اما القوى فليس فى حاجة الى عصا ليستند عليها .. انه يقف على قدميه قويا متحديا ، بلا مبادىء وبلا مثل عليا ! !

هكذا كان يخاطب نفسه وهو جالس فى مقعده الوثير أمام المدفأة فى بيته الأنيق الذى تتناثر فيه التحف كأنها شواهد تقوم فوق قبور اباطرة الرومان ..

ولكنه منذ سبع سنوات لم يكن يخاطب نفسه هكذا ، ولم يكن يملك هذا المقعد الوثير ، ولا هذه المدفأة ، ولا هذا البيت الأنيق .. ولم تكن فى حياته قبور ، بل كانت حياة تجرى الدماء الحارة فى كل دقائقها وثوانيها ، وتنبض أيامها فى قوة وعنف تهتز لهما المدينة كلها ..

منذ سبع سنوات فقط كان فقيرا ـ أو أقرب الى الفقر ـ وكان فنانا عبقريا يرسم خطوط مجده فى قسوة وجراة .. قسوة على نفسه وجراة على الناس ، وعلى القانون ، وعلى الحكومة ، وعلى التقاليد ..

***

وكان مؤمنا بهذه المبادىء وهذه المثل العليا ، ولم يكن يعتقد انه يؤمن بها لحاجته اليها ، بل كان يؤمن بها ايمانا مجردا كايمانه بالله ، ايمانا لا يحتمل المناقشة ، ولا يبحث عن الأسباب ولا يلتمس الأعذار للكفر بها أو الخروج عليها ..

كان صادقا متطرفا فى صدقه .. نزيها متطرفا فى نزاهته .. وطنيا متطرفا فى وطنيته .. مضحيا ، متهورا فى تضحيته .. وكان يحب ، فيذوب فى حبه ..

كان يحب ! ! ..

كانت أيامه كلها حب ، ولم يكن يتصور يوما واحدا يقضيه على قيد الحياة بلا حب ..

كان الحب فى حياته هو الزهر الذى يعتصره ويسكب رحيقه فى دمائه ليخدر به أعصابه ، فلا يحس بالاشواك التى يدوسها فى

طريقه بقدميه العاريتين ، ولا يلمح السيوف الباترة التى تكاد تجزر رقبته فى كل خطوة يخطوها .. كانت هذه الخفقات الرقيقة التى تلامس صدره ، وهذه الهمسات الناعمة التى تطرق أذنيه فى رفق وحنان ، هى كل نصيبه من الدنيا ، وهى التى تمده بالثقة فى نفسه ، والقدرة على اعدائه ، والأمل فى جهاده ..

وكان يعجب من نفسه أحيانا .. فهو قد أحب اكثر من مرة .. مرات لا يكاد يحسبها .. وفى كل مرة كان صادقا فى حبه مخلصا .. وكان يتألم حقا ، ويسعد حقا ، وينتابه كل ما فى الحب من هناء وشقاء ..

***

كان لا يجد تعليلا لهذا القلب الحساس السريع الانزلاق الذى يضعه بين ضلوعه ، الا فى طفولته ..

فقد كان فى طفولته محروما من الحنان .. حنان الأم وحنان الأخت وحنان أية امرأة .. كانت طفولته قاسية جافة أشبه بالطفولة المشردة ، تركت فى نفسه عقدة نقص ، حاول أن يعوضها عندما بلغ طور الرجل ، بالارتماء فوق صدر أية امرأة ليفتش فيه عن الحنان ..

الى أن قابلها ..

وفى هذه المرة لم يحاول أن يعتصر رحيق الحب من الزهر ، بل حاول أن يعتصره من حجر ..

كانت تمثالا جميلا من الحجر .. ورغم ذلك أحبها ! !

أحبها رغم انها كانت تمثل أمامه كل ما يبغضه ، وكل ما يحتقره ، وكل ما يكافح للقضاء عليه ..

وكانت صورة عكسية لكل ما يمتاز به ..

كان ثائرا فى كل تصرفاته ، حتى لتكاد النار تندلع من أطراف

أصابعه .. وكانت باردة برودة الثلج فى يوم مظلم ! !

كان فقيرا وسيصبح غنيا ، وكانت ثرية وستصبح فقيرة ..

كان مؤمنا بمبادئه وبمثله العليا ، ولم يكن لها مبادىء ولا مثل عليا ، ولم تكن تعتقد ان العالم فى حاجة الى مبادىء أو الى مثل عليا ! ! ..

كان قوى الشخصية حتى تكاد تحس به دون أن تراه .. ولم يكن لها شخصية حتى تكاد لا تحس بها وهى بجانبك .. بل انها كانت تفتقر الى الخطوط البدائية التى تحدد شخصية كل انسان .. فهى لم تكن مصرية ، رغم انها ولدت فى مصر وتعيش فى مصر ، ولم تكن سورية رغم ان عائلتها نشأت فى سوريا ، ولم تكن فرنسية رغم انها تحمل الجنسية الفرنسية ، فلم تكن تشعر بانها تنتمى الى مصر فتؤمن بما يؤمن به المصريون ، أو تنتمى الى سوريا فتؤمن بما يؤمن به السوريون ، أو تنتسب الى فرنسا فتزهو بشخصية فرنسية ..

حتى لغتها .. انها تتكلم العربية بلكنة فرنسية ، وتتكلم الفرنسية بلكنة عربية ، وتتكلم الانجليزية بلكنة أمريكية التقطتها من أفلام السينما ! !

***

لم يكن لها شعب ، ولا وطن ، ولا هدف ، ولا شىء تغار عليه وتتحمس له .. كانت شيئا ضائعا لا خطوط له ولا حدود ..

شيئا كهذه الرغوة التى تطفو على سطح مياه البحر قرب الشاطىء ، تختفى حينا وتظهر حينا ، دون أن يكون لها أثر ، ولا أهمية ، لا بالنسبة للبحر ، ولا بالنسبة للشاطىء ..

مظهر واحد كان يحدد شخصيتها .. وهو هذه النظارة السوداء التى تضعها على عينيها دائما ، صباحا ومساء ..

وهو لم ير فيها ـ عندما رآها لأول مرة ـ الا هذه النظارة السوداء ، وصليبا من ذهب يتدلى فوق صدرها المكتنز ويترنح بين طيات ثوبها كأنه يحاول أن يختبىء خجلا من صاحبته ومن عيون الناس ..

أين رآها لأول مرة ؟ ..

انه يذكر اليوم والمكان بالتحديد ـ ٥ يونيو عام ١٩٤٣ ـ ملهى « الرومانس » بالاسكندرية ..

رآها واحتقرها ، وثار فى نفسه هذا الاشمئزاز الذى كان يثور فى نفسه كلما رأى واحدة أو واحدا من هذه الطبقة الراقية التى تعود أن يكرهها ويحاربها قبل أن يصبح عضوا بارزا فيها ! !

كانت يومها تضحك كثيرا ، وتشرب كثيرا .. وتطوف بين الموائد والكأس بيدها تداعب الرجال ، والرجال يقابلون دعابتها فى ترحيب ينقصه الحماس ، وكأنهم تعودوا منها هذا الضحك الكثير ، وهذا الشرب الكثير ، وهذه الدعابات ..

***

ووقفت عيناه عند النظارة السوداء والصليب الذهب .. ولم ير غيرهما .. لم ير أن لها انفا دقيقا .. كأنه خلق خصيصا لاستنشاق عبير الورد ، وان لها حاجبين كثيفين كأنهما ظلال من الفحم الاسود ألقاها فنان ليبرز بها بياض بشرتها ، وان لها شفتين ترتعشان دائما كأنهما فى انتظار قبلة مرتقبة ، حتى لتضغط عليهما بأسنانها بين الحين والحين لتهدىء من رعشتهما .. وان لها ثلاث شامات انتثرت فوق وجهها ، وكأنها ـ أى الشامات ـ معالم الطريق الى شفتيها ..

لم ير شيئا من هذا كله ..

فقط النظارة السوداء ، والصليب الذهب ..

وظل بعدها ليالى كثيرة وهذه النظارة وهذا الصليب يلاحقانه فى نومه وفى صحوه .. لا يدرى لماذا ؟ !

وكان أحيانا يحاول أن يجد معنى لنظارة سوداء وصليب من ذهب ، لو رسما فى لوحة من الفن الرمزى .. أى رمز يوحيان به ؟ ..

الصليب يمثل الهداية ، والنظارة السوداء تمثل ظلام الضلال .. كيف تجتمع الهداية والضلال فى لوحة واحدة ؟ !

وقد ترمز النظارة السوداء الى الغموض المثير المريب .. والصليب يرمز دائما الى الوضوح .. وضوح المبدأ ووضوح الفكرة ووضوح الانسانية الكريمة .. كيف يجتمع الغموض والوضوح بهذه السهولة فى انسان واحد ! !

وبدأ يراها كثيرا ، فهو يتردد على نفس الأماكن والمنتديات التى تتردد عليها .. وفى كل مرة كان يراها ، كان الغيظ يخنقه ، والحقد يثور فى صدره ، حتى يتمنى لو صفعها .. فقد كانت دائما تضحك ، ودائما تشرب ، ودائما تأكل ، ودائما تداعب الرجال

ثم بدأ يقيم من نفسه رقيبا عليها ، يحاسبها على كل حركة من حركاتها ، وعلى كل رجل تلتصق به .. ثم بدأ يتعمد البحث عنها ويخرج من ملهى ليدخل آخر جريا وراءها .. كل ذلك دون أن تحس به أو تلمحه ، ودون أن يعرف عنها الا هذه النظارة السوداء وهذا الصليب الذهب الذى يتوارى فى صدرها خجلا منها ومن عيون الناس ! !

***

ودعى الى حفلة كوكتيل فى احدى السفارات الأجنبية .. وهو يكره حفلات الكوكتيل ويعتبرها حفلات نفاق يتحتم عليك فيها أن تضع ابتسامتك فوق شفتيك لتقابل بها أعدى أعدائك ..

وكان يتلقى الدعوات الى مثل هـذه الحفلات فلا يلبيها ، ولا يكلف نفسه حتى الاعتذار عنها .. فقد كان يعلم انه يدعى اليها بحكم فنه لا لشخصه ، وكان يعلم ان من سيقـابلونه هنـاك يخافون جرأته ولسانه والخطوط الصريحة التى يرسمهم بها ، ولكنهم لا يحبونه ، ولا يطيقون وجوده .. وكان دائما يفضل أن يخافه الناس على أن يحبوه ، فانك لن تملكهم بالحب وستخضعهم بالخوف ! ! ..

ولـكنه فى هذه المرة لبى الدعوة وذهب ..

ذهب ليراها هناك ولتراه لأول مرة ..

قدمهما صديق أحدهما الى الآخر ، ونطق اسمها : سوزيت ..

ولم ينطق اسم عائلتها .. وكأن كل انسان فى العالم مفروض فيه أن يعرف من هى سوزيت ، ومن هى عائلة سوزيت ، وان أباها احد كبار الأثرياء المضاربين فى البورصة ..

وعندما نطق الصديق باسمه هو ، صاحت :

ـ أهذا هو انت ؟ .. كنت اتخيلك رجلا عجوزا مخيفا ذا لحية زرقاء شعراتها كالشوك ! !

ولم يجب بشىء .. فقد تعود ان يسمع مثل هذا الـكلام من كل من يلقاه لأول مرة ، وحاول أن يحتقرها دائما قبل أن تعرفه ، ولـكنه لم يستطع .. فقد راى فيها لأول مرة شيئا آخر غير النظـارة السوداء وصليب الذهب .. رأى الأنف الدقيق ، والحاجبين الكثيفين ، والشامات الثلاث ، والشفتين المرتعشتين !

***

ودار بينها وبين الصديق المشترك ، حديث تافه حول قضاء الصيف فى أوربا عندما تنتهى الحرب ويتاح السفر للخارج ، وكان صامتا ، لا يشترك فى الحديث الا بالقدر الذى يحتمه عليه وجوده

بينهما ، الى ان التفتت اليه تسأله :

ـ أين تسافر بعد انتهاء الحرب ؟ ..

واجاب فى اقتضاب :

ـ لن اسافر ..

ـ لماذا ؟ .. الا تعجبك مصايف أوربا ؟ ..

ـ انى لم أر أوربا .. انى فقير يا آنسة .. ولى الشرف ! !

ولم يبد عليها انها ارتاعت لتصريحه بفقره ، أو اشفقت عليه أو حتى اشمأزت منه .. لم يبد عليها انها سمعت شيئا يستحق التعليق ، أو يستحق أن يكون موضوعا لنقاش ، انما مدت يدها والتقطت كأسا من فوق صينية يطوف بها خادم ، وقدمتها اليه قائلة :

ـ اذن ، خذ هذه الـكأس .. فهى تقدم هنا مجانا !

قالتها ، ثم واجهته بنظارتها السوداء وصليبها الذى يتـدلى فوق صدرها ، وابتسامة واسعة بين النظارة والصليب ! ..

واراد أن يعتبر قولها اهانة لحقته ، وأن يثور وأن يحطم الكأس التى تقدمها له ، ثم يحطم النظارة السوداء ، والصليب الذهب ، والأسنان التى ترسم ابتسامتها .. ولكنه لم يفعل شيئا من هذا كله ، وعلق عينيه فوق وجهها برهة ، ثم ادار لها ظهره متجاهلا اليد التى تحمل له الكأس ، متظاهرا بأنه يحيى صديقا ..

وعندما التفت مرة ثانية لم يجدها ، ولم يجد صديقهما ..

***

ومرت أيام ..

وجاء هذا الصديق نفسه يدعوه الى العشاء .. وهو صديق لم يتعود دعوته ، ولم يكن يرتاح اليه .. انه من هذا الصنف من الشبان الذين يقضون أيامهم بحثا وراء متعة أو بحثا وراء نفع

مادى ، ويخيل اليك انهم كرماء بما ورثوه عن آبائهم من مال ، ولكنك لو تحققت لوجدت ان لـكل مليم لديهم حسابا ، ولـكل صديق حولهم نفعا يعوضهم عن السخاء الذى يسبغونه عليه .. ورغم ذلك قبل دعوته ..

ولم يفاجأ عندما وجدها هناك ، ولم يفاجأ عندما وجد الدعوة مقصورة على اربعة .. هو ، وهى ، وصديقه ، وفتاة اخرى .. وكأنه كان ينتظر أن يجدها ، وأن تكون له ! !

وقالت عندما رأته ، وكأنهما أصدقاء قدماء :

ـ أين كنت ؟ .. لماذا لم أرك ؟ .. لماذا لم تتصل بى ؟ ! ..

وكانت تتكلم فى بساطة ويسر وكأن من حقها أن يقول لها أين كان ، وأين يراها ، وأن يتصل بها ..

***

وبدأت تشرب .. كانت يدها لا تلمس الـكأس حتى تفرغها ، ولا تتركها الا لتعود وتلمسها ! ! ورغم ذلك لم تبد عليها نشوة ، ولم تترنح ، ولم ترتفع الى السماء ولا انخفضت عن الارض ..

وبدأت تأكل .. فانتقت أصناف الطعام لنفسها فى دقة وخبرة وكأنها تعد مذكرة قانونية ، وعندما جاءت الأطباق احتضنتها بين ذراعيها وافنت نفسها فيها .. أكلت كثيرا ، ورغم ذلك لم يبد عليها الشبع ولم تحمد الله .. وهو يكره المراة التى تأكل كثيرا ، بل يكره أن يرى امرأة تأكل ، فالنساء فى نظره ملائكة لا يأكلن كما يأكل باقى البشر .. وكان دائما من انصار التقاليد القديمة التى تحرم على المرأة أن تشارك الرجل طعامه حتى لو كانت زوجته ، لا لأنها تقاليد تحط من قيمة المراة ، بل لأنها تصون المرأة من أن تبدو امام رجلها فى شكل منفر .. شكل حيوان يأكل ويلتقط الطعام بشفتيه ويمضغه بأسنانه .. فى حين ان

الشفتين لم تخلقا الا للقبل ، والأسنان لم تخلق الا للابتسام ! !

ولكنه لم يكرهها عندما رآها تأكل ، بل شعر بغيظ ، وأراد ان يمنعها من الأكل حتى لا تفسد جمالها وصورة الملاك التى يحاول أن يرسمها لها ، ولكنها لم تفهم شيئا .. ونظرت اليه كأنه مجنون !

وكان الحديث حول المائدة تافها .. وهو لا يجيد الأحاديث التافهة ، ولا يحفظ شيئا من هذه النكات المبتذلة الخارجة التى يتناقلها الناس لاثارة الضحك المفتعل بينهم .. وكانت تحفظ كثيرا من هذه النكات ، وتضحك كثيرا لها حتى لو كانت «قديمة» .. واضطر أن يستعين بالكأس ليجد فى نفسه الشجاعة ليضحك معها وليشاركها هذه الأحاديث التافهة ، وليقاوم احتقاره لعقليتها .. وشعر ليلتها انه بدأ يخون مبادئه ، وبدأ يلين فى خلقه العنيد الجاف ، وبدأ ينافق ..

ولكنه كان يشعر بأن هناك شيئا يربطه بها ، ويدا مجهولة تدفعه اليها ، وكان يخدع نفسه عندما يعتقد ان هذه الفتاة التى بجانبه لا تثير الا سخطه وغيظه واشمئزازه .. فقد كانت تثير كل ذلك فعلا ، ولكنها كانت تثير أيضا قلبه ، ولهفته ، وحنانه ! !

***

وقام يراقصها .. وعندما ضغط بذراعه فوق ظهرها لم يبد عليها انها احست بشىء ، وعندما وضع خده فوق خدها لم تمانع ولم يحمر وجهها خجلا ، ولم تحس ان هناك خدا فوق خدها .. وعندما قرب انفاسه من أذنها لم ترتعش ولم تحترق اذنها .. كانت باردة كالحجر الصلد الجميل ، وكانت ترقص وكأنك تدفع هذا الحجر بذراعيك فيندفع دون أن يحس ..

وانصرفوا هم الأربعة .. وكان يفكر كيف يودعها ، وكيف

يلتقى بها مرة ثانية ، وعندما وضعت ذراعها فى ذراعه ، وقالت له ــ وكانوا قد أصبحوا فى الشارع :

ــ أين سيارتك ؟ ! ..

ذكرها انه فقير ولا يملك سيارة ، ثم نادى سيارة اجرة ! !

ولوحت بيدها للصديق وصاحبته ، وقفزت فى داخل السيارة

الى أين ؟ ..

كما تريد ! !

واعطى للسائق عنوان بيتـه ، وانتظر منها أن تعترض وأن تحتد وأن تثور فهذه أول مرة يخرجان فيها سويا ، ولم تجر العادة بين بنات الناس ، حتى فى هـذه الطبقـة الثرية المدللة الفاسقة ، أن تصحب الفتاة شابا تلتقى به لأول مرة الى بيته ..

ولكنها لم تعترض ولم تحتج ولم تثر .. ظلت جامدة كالحجر !

وأصبحا فى البيت ..

انه بيت متواضع ، ولكنه بيت فنان تنتشر فيه لوحات وكتب رخيصة تمثل الفن الشعبى المصرى .. وكانت كل فتـاة تدخله تجد فيه شيئا تتلهى بالفرجة عليه ريثما تلتقط أنفاسها وينسجم الحديث بينها وبينه .. ولكن هذه الفتاة لم تحاول أن تتلهى بشىء ، انما خلعت نظارتها بمجرد دخولها ثم استدارت له بوجهها

***

ولأول مرة يكتشف انها قصيرة النظر الى حد بعيد ، وان هذه النظارة السوداء لا تضعها لمجرد التجميل كما جرت العادة بين الأوساط الراقية فى تلك الأيام ، بل ان نظارتها طبية سميكة

ولأول مرة أيضا يكتشف لون عينيها .. لون العسل المصفى ..

وكانت فى عينيها نظرة نهمة جائعة .. نفس النظرة التى خيل اليه انها تطل من وراء نظارتها عندما كانت تستقبل أطباق الطعام !

وأحس بالحرج .. كان يريد أن يتحدث اليها وان يستمع لها .. يريد أن يروى لها قصته ، وتروى له قصتها .. ولكنها كانت تقترب منه وشفتاها ترتعشان وانفاسها تتهدج والنظرة النهمة تحرق وجهه .. ثم اذا هى بين ذراعيه ، وشفتاها فوق شفتيه ، واسنانها تصطك بأسنانه وذراعاها القويتان تعصرانه فى صدرها

وكاد يختنق .. وانبهرت أنفاسه .. وتثلجت أطرافه .. ثم حاول أن يبعدها عنه ولكنها كانت قد أصبحت كالذئبة .. ازدادت عيناها لمعانا ، وانتثرت خصلات شعرها فوق وجهها .. وانطلقت من صدرها ضجة كأنها العواء .. ثم نضت ثيابها عن نفسها فبدت عارية الا من الصليب المظلوم الذى كان يتعذب فوق جيدها ، ويترنح فى عنف كأنه يريد الفرار منها ..

ومدت ذراعيها اليه لتعصره من جديد ، وأنشبت أظافرها الحادة فى لحمه ، وتأوه فى ألم .. ولم يدر ماذا يفعل ؟ .. وكيف يهرب من جحيمها الذى تسلطه عليه ..

ولم يفعل شيئا الا أن استسلم لها بلا حس وبلا أعصاب ، وكتم الألم والضيق فى صدره ، ولم يعد بين يديها سوى كيس من القش تمزق فيه بأسنانها وأظافرها ، وهو لا يحس ولا يعترض ..

***

لقد حدث كل هذا فجأة ، بلا مقدمات وبلا حديث .. كأنها صدمة صامتة أصابته من حيث لا يدرى ولا يحتسب ..

وعندما ضاقت به .. افلتته من بين ذراعيها فى صمت ، ثم أعادت نظارتها فوق عينيها ، ودخلت فى ثيابها ، وهدأ الصليب فوق صدرها .. وعادت باردة كالحجر ! !

لم يقل شيئا .. ولم تقل شيئا ! !

انما لمح دمعة صغيرة تنحدر فوق وجنتيها ..

انها مريضة هذه الفتاة ..



٢

انها مريضة ..

هذا البرود ، وهذا الانحلال ، وهذا الحس الحيوانى العنيف ، وهذا التجرد من كل مقومات الانسانية .. كل هذا لا يمكن أن يكون الا مرضا ..

ان الفرق بين الانسان والحيوان ، هو الفرق بين الفكرة والمادة ، هو الفرق بين المبدأ ولا مبدأ ، هو الفرق بين الاحساس بالمعنى ، والاحساس بالفعل أو بالعمل ..

واذا وجد انسان ليس له فكرة ، وليس له عقل يفسر عاطفته ، وليس له حس بالمعانى .. فهو لا يكون حيوانا ، بل يكون انسانا مريضا ..

وقد عرف مرضها عندما عرف قصتها :

كانت فى طفولتها اشبه بالولد .. لم يكن فيها شىء يدل على أنها أنثى .. كانت سمينة قوية ، وكان وجهها منتفخا اشبه بكرة القدم ، ليس فيه خطوط تبين ملامحه أو ترسم مفاتنه ، وكان « النمش » ينتشر فيه كأنه وجه المنخل وكانت رقبتها قصيرة حتى يخيل اليك أن راسها ملتصق بكتفيها ..

ولو رأيت صورتها فى تلك الأيام ، لما عرفتها اليوم ، بعد أن رق عودها فبرزت مفاتنه ، ورسم الشباب فوق وجهها خطوطا ، فأبرز وجنتيها العاليتين كثمرتى التفاح ، وحدد أنفها الأنيق ، وغمس شفتيها فى ماء الورد ثم أطلق فيهما الحيـــاة فارتعشتا متلهفتين الى القبل ، كما اختفى « النمش » من صفحتها ، ولم يعد منه الا هذه الشامات الثلاث التى تحدد الطريق الى شفتيها

***

وكان لها أربعة اخوة صبيان ، كانوا يعتبرونها « واحدا » منهم وكانت تعتبر نفسها « واحدا » بينهم .. لم يحاول أحد منهم أو من عائلتهـــا أن يضع حـــدودا بين طبيعتها كأنثى ، وطبيعتهم كذكور .. فكانت تلعب نفس ألعابهم ، وتشاركهم أحاديثهم ، وترتدى مثل ثيابهم ، بل كان يضمها معهم حمام واحد كلما حانت ساعة الاستحمام .. وكان يحدث هذا مع أصدقائهم أيضا .. فكانوا بعد أن ينتهوا من رياضـــتهم فى ناديهم يدخلون جميعا حماما واحـــدا ويقفون عرايا تحت « الدش » وهى بينهم كأنها منهم ، وكأن طبيعتها مثل طبيعتهم دون أن يثير وجودها عارية ، ـ وهى فى الحادية عشرة ـ لهفة أحدهم ، أو عاطفته ، أو شعوره بأن أمامه كائنا مختارا صانه الله ، وصانته التقاليـــد من عيون الرجال ..

وهى نفســـها لم تكن تحس بشىء .. لا بالخجـــل .. ولا بالاشمئزاز ولا بالرغبة أو الرهبة .. ولم تدفعها طبيعة تكوينها الجسمانى الى مجرد التفكير أن لها دنيا خاصة يجب أن تعيش فيها بعيدا عن الدنيا التى يعيش فيهـــا اخوتها الصبيـــان وأصدقاؤهم ، ولم تتساءل يوما لماذا لا تشاركها بقية الاناث هذه

الدنيا .. كانت تعيش فى ظـــلام جنسى .. لا ترى شيئا ، ولا يحاول أحد أن يريها شيئا !

وقد ضمن لها هذا الظلام ، انها كانت على قدر كبير من القبح والخشونة وجفاف العاطفة .. القدر الذى لا يستثير شابا عندما تقف أمامه عارية ، ولا يستثيرها عندما تجد نفسها بين رجال عرايا ..

وبدأ العمر ينقلها من عام الى عام .. أصبحت فى الرابعة عشرة ثم فى الخامسة عشرة ، ثم فى السادسة عشرة .. وبدأت غريزة الأنثى تضج فى عروقها .. الغريزة التى سكبتها الطبيعة فى دماء كل أنثى ولا تملك أى أنثى حيالها الا أن تكبتها فى عنف وقسوة الى أن يجمع الله بينها وبين رجلها .. ولـكنها لم تفهم معنى لهذه الغريزة ، ولم يحاول أحد أن يفتح عينيها أو يزيح الظـلام من حولها .. كل ما حدث ، انها بدأت تلاحظ هـذه الهمسات التى تدور بين الصبيان والبنات ، وهذه النظرات التى يتبادلونها فى خفر وعلى استحياء ، وهذه اللمسات السريعة الساخنة التى تصل بينهم وتفرقهم ، وتبعدهم وتقربهم ..

***

وبدأت تتساءل : لماذا لا يهمس صبى فى أذنها ؟ ولماذا لا تتلقى هذه النظرات ولا تجيب بمثلها ؟.. ولماذا لايكون من نصيبهـــا بعض هذه اللمسات التى تبدو رائعة تقطر لذة ونشوة ؟ ! ..

وكانت تدعى الى الحفلات الراقصـــة .. ولم تكن تميل الى الرقص ، وكانت عندما ترقص تبدو كجندى يدب على الارض بقدميه فى استعراض عسكرى ..

وكانت تفضل فى هـذه الحفلات أن تكتفى بمشاركة الصبيان حديثهم وشرابهم ولهوهم كأنها واحـــد منهم ، ولـكنها بدأت

تطور ، وبدات تلاحظ انه كلما عزفت الموسيقى انفض الفتيان من حولها ، واداروا لها ظهورهم ، ثم التقط كل منهم فتـاة ، وتركوها لواحد منهم ، يتلفت حواليه فاذا لم يجد فتاة أخرى ، تقدم اليها يطلبها للرقص ، واذا ما راقصها لا يحاول أن يهبها بعض هـذه اللمسات أو بعض هـذه الهمسات أو بعض هـذه النظرات ! !

وبدات فى تطورها ، ترقب صديقاتها البنات .. كيف يتزين ويتجملن ، وكيف يصففن شعورهن ، وكيف يصبغن شـفاههن بلون احمر باهت جميل يتناسب مع أعمارهن البكر ..

وبدات تقف امام المرآة ، فعرفت لأول مرة أنها ليست جميلة ، وكرهت هذا الوجه المنفوخ ، وهذا « النمش » الاسود الكريه ، وهـذا الجسد المكتنز السمين .. وقد حاولت أن تتجمل امام المرآة ، حاولت أن تفعل ما تفعله البنات .. فكانت تتجمل على استحياء .. وكأنها ترتكب أمرا ادا ليس من طبيعتهـا ولا من تقاليد بنات جنسها .. وقد فشلت .. فشلت فى أن تبدو جميلة بينها وبين مرآتها ..

***

وتكونت فى أغوارها عقـدة نفسية مركبة نتيجة لهذا النقص الذى بدأت تحس به ، وقد حاولت ـ دون أن تتعمـد ـ أن تتغلب على هذا النقص بتفوقها فى الألعاب الرياضية .. فكانت بطلة فى التنس ، وبطلة فى الانزلاق ، وبطلة فى السباحة ، وبطلة فى البنج بنج .. وكانت تذهب الى ناديها الرياضى كل صـباح لتبقى فى ملاعبه حتى المسـاء تمارس تمريناتها فى قسوة وعنف انتظارا ليوم المباراة ..

وفى المباريات كانت تقتل نفسها فى سبيل الفوز . لم تكن

تسمح لفتاة أخرى أن تفوز عليها .. فهذا الميدان هو ميدانها وحدها ، دون كل البنات .. هو الميدان الذى تستأثر فيه بأنظار كل الفتيان ، ولهفتهم ، وتصفيقهم وهتافهم .. ولم يكن يهمها أن تفوز بالجائزة قدر ما كان يهمها أن تفوز بهذه الانظار ، وهذه اللهفة ، وهذا التصفيق .. كانت تشـعر ساعتئذ انها أهم من كل البنات الأخريات .. وانهن يفرن منها ويحسدنها ، وكان هذا يعوضها عن بعض ما تشعر به نحوهن من غيرة وحسد كلما رات واحدة منهن وبجانبهـا شاب يهمس فى أذنها ، ويضغط على يدها ، ويدفئها بعينيه ..

كان هذا هو حالها يوم التقت بأول رجل فى حياتها ..

كان فتى ايطاليا أفاقا فى الثامنة عشرة من عمره ، يعيش عالة على أب يمتلك محل بقالة فى الاسكندرية ..

***

ولم يكن يعرفهـا عنـدما التقى بها فى احدى هذه الحفـلات الراقصة ، ولكنه كان يعرف اسم عائلتها العريض ، وثروة أبيها المضارب الكبير فى البورصة .. وقد جذبه اليها كل ذلك ، ولم يكن فيها ما يجذبه غير ذلك ، فتقدم يطلبها للرقص !!

ولأول مرة ترى فتى يختارها هى وحدها من بين كل البنات ..

ولأول مرة تحس بذراع رجل يضغط على خصرها فى تعمـد له معنى .. وان لم تفهم له معنى !

ولأول مرة ترى عينين تنظران اليها فى رغبة مثيرة ، وان لم تعرف فيم الرغبة وماذا يثيره منها ؟!

ولأول مرة تشعر بوجه يلتصق بوجهها ويهمس فى أذنها ، وان لم تستطع أن تفسر هذه الهمسات ولا هذه الأنفاس !

ورقص معها طول الليل ..

واحست بالزهو .. لم تحس بشيء الا بالزهو .. لقد أصبح لها رجل يسعى اليها ويحيطهــا باهتمامه .. لم يعد ينقصها شيء .. انها كباقى البنات .. انها ليست قبيحة .. وليست مهملة .. وليست صبيا من الصبيان ! !

وعندما طلب اليها أن تحدد له موعد لقاء ، كادت ترتفع عن الأرض فرحا .. فقد كانت تقابل جميع الفتيان ، ولكنها لم تكن تقابل أحدا منهم على موعد ، الا اذا كان موعدا للعب التنس أو البنج بنج .. وهذا الفتى لا يريد أن يلعب التنس أو البنج بنج ، انه يريدها لنفسها .. ولم تكن تدرى ما يريد أن يصنع بها ! !..

كان أول موعد غرام فى حياتها ..

وتم كل شيء فى بساطة ، وكأنه كان دعوة لتناول طعام شهى !

لقد صحبها الى بيت .. وتناولا بعض كؤوس من خمر رخيص .. ثم اخذها بين ذراعيه .. وقبلها عشرات القبل .. ثم أطفأ النور . . . .

. . . .

. . . .

وقامت من بين ذراعيه امرأة !!

***

ولم تشعر انها ارتكبت اثما .. ولم تشعر انها فقدت شيئا تحاسبه أو تحاسب نفسها عليه ، فقد كانت تعتقد أن هذا هو ما يحدث بين كل فتى وفتاة ، وان هذا هو الحب ؟!

ــ ما هو الحب ؟!

ان أحدا لم يحدثها عنه .. وكل ما تعرفه عنه رأته بعينيها .. رأته بين الفتيــات والفتيــان فى ملاعب النادى والحفـلات الساهرة ، ورأته فى الافلام السينمائية ، ورأته فى الكتب التى

قرأتهــا بعينيها دون أن يســاعدها خيالهــا على تفهم ما بين سطورها ..

ولكن أحدا لم يقل لها ماذا يمكن أن يحدث عندما يصحب الفتى فتاته الى بيت ، ويتناولا سويا كؤوسا من الخمر الرخيص ثم يأخذها بين ذراعيه ، ويقبلها عشرات القبـــل ، ثم يطفىء النور ؟ ! ..

هل كل هذا يبيحه الحب ؟ وهل كان يجب أن تذهب معه الى هذا البيت ؟ ! ..

وهذا الجسد ؟ ! ..

ما هى قيمته ، وما هو المحرم منه ، وما هو المباح ؟!

ان مربيتها السورية العجوز لم تحدثها يوما عن جســدها لتصونه ، وأمها لم تبصرها يوما بأن لهذا الجسد قيمة يضن بها الا أمام الله .. واخوتها وأصدقاؤها كانوا يعتبرون جسدها مضربا لكرة التنس ، أو مجذافا للسباحة ، أو ساقا تقف به على قبقاب الانزلاق ، ولم يحاول واحد منهم أن يعتبر هذا الجسد جســد انثى فيعودها احترامه ، ويعودها أن تحفظه من الاثم ، وأن تنقذه قبل أن يقتحمه رجل ..

***

انها بريئــة .. بريئــة أمام الله ويجب أن تكون بريئة أمام الناس ..

انها ضحية الجهل ، وضحية انحلال الطبقة التى تعيش فيها ، وضحية أبيها الذى أهملها ، وضحية انانية الأم التى تركتهــا للصبية ، وضحية الأخوة الاغبياء الذين تركوها بينهم تتجرد من حياتها ومن أنوثتها ، ومن ضعفها التقليدى .. هذا الضعف الذى يهب كل امرأة القوة على المقاومة ..

ولكنها لم تشعر انها كانت ضحية .. كانت لا تزال فى الظلام..
وكانت تعتقد ان ما حدث لها لا يعدو أن يكون أمرا عاديا بين كل فتى وفتاة ..

وكان عليها ان تشترك فى اليوم التالى فى مباراة لبطولة السباحة .. وكان النادى يعلق عليها أملا كبيرا للفوز على النوادى الاخرى ، بل كانت كل أمل النادى

ولكنها هزمت ..

ولم تجد صرخات مدربها ، ولا هتاف الجمهور وتشجيعه ، فقد كانت تضرب الماء بذراعين مسترخيتين ، وساقين مفككتين .. ثم انها لم تعد تتلهف الى هتاف الجمهور ، ما دامت قد وجدت رجلا يهتف لها وحدها ، ولم يعد يهمها أن تفوز عليها فتاة أخرى بالبطولة ما دامت لن تفوز عليها فى فتاها

***

وانتهت حياتها كبطلة رياضية ..

وبدأت حياتها كأنثى ضالة بين الكلاب !!

والتصقت بهذا الفتى الايطالى عامين كاملين ..

انه فتى منحل يؤمن بالمبادىء الوجودية ، لا على أنها مبادىء فلسفية لها نظريات ولها أهداف ، وتغلب كيان الفرد على كيان المجتمع ، بل يؤمن بها هذا الايمان السطحى المنتشر بين الطبقة المنحلة من الجيل الجديد ، والذى يتخذونه ذريعة يبررون بها فسقهم وانحلالهم وتهورهم .. ان كلا منهم يعطى لنفسه الحق فى أن يفعل ما يشاء وأن يبدو كما يشاء ، وأن يحدد ما هو الخير وما هو الشر ، وما هو الحق وما هو الباطل ، ويعتقد ان الحرية هى الاباحية ، وان التحرر من سيطرة التقاليد ، هو التحرر من النظام الاجتماعى ومن الدين ومن الحياء ومن الضمير .. !

هذا هو المبدأ الوجودى كما كان يفهمه هذا الفتى الايطالى ، وقد اقنعها به .. ولم يكن يهمها أن تقتنع ، بل كان كل همها ان تفعل ما يريد أن يفعله وأن تنقاد له فى هوسه وجنونه واباحيته ..

وقد فهمت الحياة معه على أنها خمر ولهو وأجساد تلتصق ، فكان يجرها وراءه الى الحانات القذرة ليملأ أمعاءها بأردأ أنواع الخمور ، ويسحبها الى نوادى القمار الرخيص لتجلس بجانبه حتى ينقضى الليل . ثم يسحبها الى بيت ليهلك جسدها بين ذراعيه ..

وكانت فى كل ذلك لا تحس الا احساسا ماديا محضا .. كانت تحس بالخمر ، وتحس بالاكل ، وتحس بحاجة جسدها اليه .. فلم يحاول هذا الفتى أن يضع شيئا فى رأسها أو فى قلبها .. لم يحاول أن يفسر لها معنى الخمر ، أو معنى الموسيقى التى يرقصان على انغامها ، أو معنى الالتصاق به .. كان كل شىء يفعلانه ليس له فى تقديرهما الا تقدير الآلة الصماء التى تدور بلا وعى وبلا مبدأ ، وبلا روح ، وتتحدى بضجيجها صوت الله ، وأصوات الملائكة ، وصوت الانسانية

وازدادت التصاقا به .. لقد أصبح بالنسبة لها شيئا ضروريا ضرورة مادية كالأكل والشرب .. ولم تكن تتصور انها تستطيع ان تقضى ليلة دون أن تشبع جسدها منه ، كما لم تتصور انها تستطيع أن تقضى ليلة دون تناول طعام العشاء ! ..

***

وقد أهين هذا الجسد المسكين بين ذراعى هذا الفتى ، وأصيب بتبلد مقيت فى احساسه .. فقد كان الفتى مصابا بشذوذ فى تصرفاته يسمونه طبيا « بالساديزم » . فكان اذا ما اختلى بها

مزق الثوب عنها بأيد محمومة ، ثم ينهال عليهـــا ضربا بأكف مجنونة ، وينشب أظافره وأسنانه فى لحمها حتى يرى اللحم يبصق الدم ، فتلتمع عينـــاه ببريق مخيف مهووس .. الى ان يهدأ فوق صدرها ! ..

ولم تعرف أن فتاها مريض بهذا الشذوذ ، بل اعتقدت أن كل الفتيان هكذا ، وأن نصيبها منه هو نصيب كل فتاة من فتاها .. فتحملته بحكم العادة ، وأصبحت لا تحس الا بهذه الضربات وهذه الأظافر والأسنان .. فكان لا يكفى – حتى بعدما كبرت – أن تمر بأصابعك فوق وجنتيها لتحس بحنانك ، بل كان يجب أن تصفعها ، وكان لا يكفى أن تقبلها بشفتيك بل يجب أن تقبلها بأسنانك ، ولا يكفى أن تداعب خصلات شعرها بل يجب أن تجذب هذه الخصلات بعنف حتى توقعها على الأرض ، فتحس انك رجلها ! ..

وهكذا أصبحت باردة .. بليدة .. منحـلة .. ذات حس حيوانى شره ..

***

وقد تحركت عائلتها ، ولكنها تحركت بعد فوات الأوان .. لم يستطع ابوها أو أمها أو واحد من اخوتها ، أن يمنع هذا الفتى عنها ، أو يمنعها عن الفتى .. فتركوها له ، معتقدين ان مبادىء التربية الحديثة ، تقضى بأن تترك التجربة وحدها تعلم الأبناء معانى الحياة ! ..

كانت تعود مخمورة ، فلا يحاسبها احد !!

كانت تعود مع الفجر ، وأحيانا لا تعود مدى أيام فلا يسألها احد اين كنت !

ولكنها عندما بدأت تسرف فى طلب النقود بدأوا يحاسبونها !

كانت تريد النقود لتشبع رغبات فتاها ، وتدفع له ثمن الخمر،

وخسائر القمار ، وأجر البيت الذى يقضيان فيه لياليهما .. وكانت تعلم انها اذا عادت اليه بلا نقود فلن يمنحها ليلها ، وسيفر منها الى حيث يجد قمارا ، وخمرا لا يدفع ثمنه ، فكانت تلح على ابيها وأمها وأخوتها وتثور وتذل نفسها فى سبيل بعض المال ، فلمـا غلوا أيديهم عنهـا ، بدأت تسرق .. سرقت الحـلى ، والفضيات ، بل سرقت أيضا نقود مربيتها العجوز

***

ولم تكن تعرف أن هذه هى السرقة بعينها ، كانت تعتقد أن ما تأخذه حق من حقوقها ، فان أحدا لم يعلمها الأمانة ، ولم تكن فى حاجة الى الامانة ، لأنها لا تخشى عائلتها ، ولا تخشى البوليس، ولا تخشى القانون .. انها تأخذ الحلى وتعتقد أنها حق لهـا ، وابوها يأخذ أموال الناس فى مضاربات البورصة ويعتقد أنهـا حق له ، وأمها تأخذ نقود أبيها وتشترى بها العشاق وتعتقد أن هذا حق لها .. فلماذا تلومونها هى وحدها ؟ لماذا لا تلومون الوسط الاجتماعى الذى نشأت فيه ؟ ولماذا لا تلومون هذه المبادىء والمثل العليا التى لم تعد سوى أدوات نلجأ اليها وقت الحاجة ، فان لم نحتج اليها أو اذا تعارضت مع رغباتنا تناسيناها ؟!

ولـكن هـذا المورد الذى لجأت اليه لم يستمر طويلا ، فقد احتاطت العائلة وأغلقت جميع الابواب دون يديها

ولجأت الى مورد آخر ، فكانت تذهب الى المحال الـكبرى وتشترى منها بضائع ثم ترسل بفاتورة الحساب الى والدها ، ثم تعود وتبيع هذه البضائع فى المحلات الوضيعة التى تتجر فى المسروقات .. !

وكان الفتىالايطالى هو الذى يشرف على عملية البيع والشراء . ولكن الأب الحريص قطع عليه الطريق ، فأبلغ جميع المحال انه

لن يدفع أية فاتورة حساب ترسل عن مشتريات ابنته ! ! ..

ولجأت الابنة المسكينة الى آخر الطريق ، فاشتغلت عاملة فى حانوت أزياء .. نفس الحانوت الذى تعودت هى وأمها أن تشتريا منه ثيابهما ..

وكانت تشتغل عاملة وهى لا تزال مقيمة مع عائلتها التى تؤمن بأن التجربة هى خير مرب للأبناء !!

ومرت الشهور ، وهى تعمل وفتاها متعطل يبعثر أيامه على موائد الخمر والقمار ، وبين أحضانها ..

ولم تلاحظ خلال هذه الفترة الطويلة ، انها تغيرت وأن الانهاك والشباب قد سويا جسدها وضمراه فأصبحت كتمثال عبقرى لاله من آلهة الرومان ، وان وجهها المنفوخ قد رق ونفض عنه الاكتناز فبدت خطوطه رائعة كأنها خطوط أسطورة من أساطير الجمال ..

لم تلاحظ انها أصبحت فتنة ، وأن العيون أصبحت تلاحقها وتتمناها وتناديها ، وانها تستطيع اليوم أن تستبدل فتاها بخير منه ، وأرقى وأبقى ..

***

لم تلاحظ الا ان نظرها بدأ يضعف ويبهت ، نتيجة للاسراف .. الاسراف فى كل شىء . فلجأت الى طبيب أوصى لها بنظارة طبية .. وكانت نظارة سوداء !

وفجأة اختفى الفتى الايطالى من حياتها ..

اختفى بنفس البساطة التى ظهر بها منذ عامين عندما تقدم اليها لأول مرة يطلبها للرقص

سافر الى باريس ليقيم هناك حيث المجال أوسع لنزواته وشذوذه ، ولم يكلف نفسه مشقة أن يودعها .. أو على الأصح ..

يودع جسدها .. الذى خربه وقتل فيه الانسان ليطلق منه الحيوان ! ..

وكادت تجن .. لا لأنها فقدت فتاها ، بل لأنها فقدت طعام العشاء .. طعام جسدها .. طعام الحيوان الذى يعوى فى عروقها كل مساء .. فلم يكن الفتى لها الا هذا الطعام ، ولم يعطها من نفسه الا اشباع جسدها واسكات هذا العواء

ودارت تبحث عن طعام عشائها .. كل ليلة طعام جديد وصنف جديد ! ! ..

***

وكان الأمر سهلا بعد أن تغيرت وأصبحت جميلة فاتنة ، فانضمت الى موكب الحفلات الراقية الماجنة والنوادى الكبرى تسكر وتعربد وتختار فتى فى آخر الليل يقدم لها طعام جسدها..

ولم تحاول أن تحتفظ بأحد هؤلاء الفتيان لأكثر من ليلة ، ولم يحاول واحد منهم أن يحتفظ بها ، فانها لم تكن تحاول أن تعطى أو تطلب أكثر من الجسد ولم تكن تعتقد انها تملك شيئا تعطيه أو تطالب به أكثر من الجسد .. لم تكن تحسب حسابا للعقل أو القلب .. ولم تكن تعرف ما هو الحب ، وانه أسمى من الجسد .. انه الروح .. انه الحنان ، انه الفكرة ، انه المعنى ، انه الانسانية .. لم تكن تعرف أو تفهم شيئا من هذا ! ! ..

وقبلها الناس كما هى ، لم يحاول أحد أن يصلحها ، أو يعالجها ، أو يفتح عينيها .. تركوها بينهم كنكتة تطوف بهم ، أو لعبة يدورون بها وتدور بهم ، وكانوا يعلمون شذوذها وشرهها فيتندرون بها فى مجالسهم .. ماذا فعلت هذا المساء مع هذا الفتى ، وماذا كان بينها وبين الآخر فى الليلة الاخرى !!

لم يكن احد يحترمها كفتاة لها اسم ، ولها ثروة أبيها ، ولها فتنة ..

ولم يكن أحد يحاول أن يربط نفسه بها ، ويتمناها كزوجة . وحتى من يحس منهم بلهفة نحوها قد تتطور الى حب ، كان يقاوم نفسه ، حتى لا يعرف عنه تعلقه بها ، فيتندر به زملاؤه ، ويتخذون من حبه سخرية ودعابة ، فقد كان لكل منهم ليلة معها تبيح له أن يحطم بها اى شعاع من الحب يتطرق الى قلب غيره

اصبحت أقرب الى سلعة ..

سلعة راقية ، يعترف بها المجتمع ويتيح لها أن تختلط ببنات الناس ، ويحيطها برعايته ..

سلعة بلا ثمن ..

لم تكن تطلب ثمن لياليها ، ولم يكن احد يطلب منها ثمنا ، كما كان يفعل الفتى الايطالى ، فلم تعد فى حاجة الى نقود تشترى بها طعام جسدها ، فتركت عملها ، وعادت تعيش فى كنف عائلتها ..

وعندما عادت ، أهدت اليها مربيتها السورية العجوز ، هذا الصليب الذهب الذى يتوارى فى صدرها المكتنز خجلا منها ومن عيون الناس ..

***

أهدت اليها الصليب ليحميها من الشيطان ، ويحميها من نفسها .. ولكن الصليب ظلم معها ، وتعذب فوق صدرها الى أن هداها اليه ..

الى الرجل الذى وقف بجانبها خمس سنوات كاملة ، يعالج مرضها .. ويزيح أوساخ جسدها ، ليكشف عن قلبها الطيب ، وذهنها الراقى وروحها الصافى ..



٣

هل يمكنه ان يحب هذا الحيوان الجميل .. هذا « الشىء » ، البارد الذى لا يحس ؟ ! ..

لقد تركته فى الليلة الاولى وهو يمقتها .. لم يكن يريد منها هذا الجسد الذى بذلته سهلا رخيصا حتى عافته نفسه وأسقطته فجأة بين ذراعيه كتمثال جميل أوقعه زلزال فوق رأس صاحبه..

كان يريد منها حنانا فى حديث هادىء ، وفى قبلة ناعمة تصل بين روحيهما قبل أن تصل بين شفاههما ..

كان يريد أن يلتقى بها قبل أن يلتقى بجسدها ..

ولكن لماذا يمقتها ؟!

انها مريضة .. انها أضعف من نفسها .. وقد تركته ليلتها وفى عينيها نظرة مسكينة ذليلة .. نظرة طفل برىء تمكن منه الجوع حتى جف حلقه فصرخت الدموع فوق وجنتيه ..

هذا الطفل لا يستحق المقت .. بل الحب !

وفى اليوم التالى كان يسعى اليها وبين جفنيه سهاد طويل .. واستقبلته وفوق شفتيها ابتسامة واسعة .. ابتسامة الطفل وقد وجد أمامه طبق طعامه المفضل ..

ولم يكن يبدو عليها شيء مما حدث ليلة الأمس .. لم ترتبك ، ولم تتلعثم ، ولم تتثلج يدها وهى تمدها لمصافحته.. وانما تصدت له بنظارتها السوداء ، والصليب الذهب يرقد بين طيات صدرها المكتنز متواريا عن عيون الناس ..

كانت هادئة .. ساذجة .. باردة ، وكأنها لم تكن عارية امامه ليلة الأمس ، وكأن آثار اظافرها الحادة لم تكن فوق رقبته ، وآثار أسنانها الشرهة لم تكن فوق شفتيه ..

***

وشعر هو بالارتباك ، وتلعثم .. ماذا يريد منها ؟ وماذا يقول لها ؟ انها لا تنتظر منه أن يريد الا شيئا واحدا ، ولا تريد منه ان يقول الا أن يدعوها الى بيته !!

ولكنه يريد شيئا آخر ، ويجب ان يقول أشياء أخرى

ودعاها الى العشاء .. قالت :

ـ أين ؟

ـ مكان هادىء بعيد .. المكس مثلا ..

ـ لا ليس المكس .. اننى لا أحب السمك !

ـ المهم أن نكون معا فى مكان هادىء بعيد ..

ـ سنكون معا فى مكان يقدم طعاما جيدا !

ـ لك أن تختارى بينى وبين الطعام الجيد ..

ـ انى أفضل أن اتناولك بعد العشاء !!

ـ انك تستطيعين أن تتناولينى فى كل وقت وفى كل مكان .. اننى قلب وعقل ..

ـ .. وشفتان ؟!

وكانت تتكلم فى بساطة ويسر ، ولم يكن يبدو عليها انها تتعمد اختيار اللفظ لتلف به معنى مقصودا ، انما كانت تعبر تعبيرا

سهلا صادقا عما تريد وعما تشتهى .. كانت تشتهى طعاما جيدا وكانت تشتهيه بعد تناول الطعام .. هذا كل ما فى الأمر !!

واقتربت بوجهها منه ـ وكانا واقفين أمام الكابين الذى تملكه عائلتها على شاطىء سيدى بشر ، والوقت وقت الغروب ـ ثم مدت يدها ونزعت النظارة السوداء ، فرأى عينيها تطلان على شفتيه فى نهم ، ومدت يدها الاخرى الى مؤخرة رأسه ، وجذبته الى شفتيها .. واحس بأسنانها تنغرز فى شفتيه ..

وضاقت انفاسه من جديد ، ولكنه لم يستسلم كما استسلم ليلة الامس ، بل ابعدها عنه فى عنف ، وهو يصرخ :

ـ كفى ..

ـ ماذا ؟ الا تريد أن تقبلنى ؟!

***

والتقط انفاسه الى أن هدأ ، وقال فى صوت ملؤه الحنان :

ـ انى أريد أن أعيش العمر كله بين شفتيك .. ولكن .. ولكنك لن تفهمى !!

ـ لا أريد الآن أن أفهم . قبلنى .. قبلنى الآن !

ونظر فى عينيها طويلا .. عينيها المتوحشتين كعينى غجرية أرقها غياب رجلها بينما لحن من كمان بعيد يمزق أعصابها ويثير غرائزها ..

ثم انحنى فوق شفتيها فى خشوع كما ينحنى العابد فوق المحراب ، ولمسها بشفتيه لمسة الندى لأوراق الورد ..

وابتعد عنها وهو لا يزال ينظر فى عينيها المتوحشتين .. فصرخت :

ـ ماذا حدث .. لماذا لم تقبلنى ؟!

ـ لقد قبلتك !

– متى ؟! أتسمى هذا قبلة ؟!

– لقد حاولت أن التقى بروحك وأن أصافح قلبك الطيب ..

– ما دخل روحى وقلبى فى شفتى .. انى اريد أن التقى بك هنا (وأشارت الى شفتيها)

– ان شفتيك ترتعشان بدقات قلبك !

– لا تكن متعبا .. انى أكره الفلسفة .. تعال وقبلنى كما يجب ! ..

– انك لا تريدين تقبيلى ، بل تريدين أكلى .. انى مجرد صنف من أصناف الطعام يؤكل بعد العشاء !!

– اذن تعال أكلك ، ولو انى لم أتناول طعام العشاء بعد ! ..

وكاد يجن .. هذه الصراحة الساذجة البريئة ، كيف يرد عليها ، وكيف يهرب منها ..

انها ليست صراحة ..

انها وقاحة ..

***

ولكن لماذا يسميها « وقاحة » .. ان كل النساء يردن نفس الشيء ، ويسعين الى نفس الهدف ولكنهن يختبئن وراء حياء مفتعل ووراء قضبان من تقاليد ضربها حولهن أجدادهن .. بل ان هذا الحياء المفتعل وهذه التقاليد تعين المرأة على الوصول الى هدفها بأسرع مما تعينها صراحة مثل هذه الفتاة المريضة ..

انها ليست مريضة فحسب ، بل هى مغفلة أيضا .. وهى فى حاجة الى امرأة أخرى تعلمها كيف تتمنع وهى راغبة ، وكيف تقاوم وهى مستسلمة ، وكيف تضعف وهى القوية ، وكيف تبكى وهى القاتلة .. امرأة تعلمها كيف تكون أنثى تغلف نفسها بهذا الغلاف الرقيق الشفاف الذى يبهر عين الرجل ويمنع يديه ،

ويجذبه ليوقفه عند حد والى أن تحين الساعة !!

انها تريده .. وتريده عنيفا مجنونا كالحيوان ..

كم من فتاة تريد رجلا .. وتريده حيوانا عنيفا مجنونا ..

آلاف .. ملايين .. ولكنها هى وحدها المغفلة ، لأنها تكشف عن نفسها وعما تريد بهذه الصراحة المقيتة ، وهذه البساطة المبتذلة

وهو .. لماذا لا يكون حيوانا وينتهى ، ويريح هذا الجسد المظلوم المريض ..

ان فيه خصائص الحيوان .. كل الرجال حيوانات .. فلماذا يستثنى نفسه منهم ، ويطالبها بأن تستثنيه ، ويصمم على أن يلتقى بروحها وقلبها ، قبل أن يلتقى بجسدها ؟!

انه مريض هو الآخر .. مريض بشيء يسمى الفكرة أو المعنى..

وقد أحبها كفكرة قبل أن يحبها كجسد .. أحب معناها قبل أن يحب مبناها .. أحبها كقصة يعيش فيها لا كليلة يقضيها معها ..

***

كلاهما مريض .. هى تعلقت بالحس الى درجة أن أصبحت حيوانا ينخفض عن مرتبة الانسان العادى ، وهو تعلق بالمعنى الى درجة ان أصبح فنانا يرتفع عن مرتبة الانسان ..

كيف يرفعها اليه ، أو كيف يهوى اليها .. أم هل يلتقيان فى منتصف الطريق ؟

لايدرى ! ! ..

ولكنه اصبح فى حاجة اليها ليشبع قلبه وذهنه ..

وأصبحت فى حاجة اليه لتأكله ، وتطعم به جسدها .. ولذلك التقيا مرة ثانية فى المساء ..

ولم يستطع أن يصحبها الى مكان هادىء بعيد .. انما صحبها الى الملهى الذى تسهر فيه كل ليلة ، والذى يضم كل أصدقائها

وصديقاتها وافراد الطبقة الراقية التى تنتمى اليها ..

انهم جميعا يعرفونه ، وقد رأوه داخلا معها .. كان يعتقد أن هذا يكفى لينفضوا من حولها فهم يخافونه .. ويخافون فنه والخطوط الصريحة الجريئة التى يرسمهم بها .. ولكنها ما كادت تجلس معه حول مائدة حتى دعت اليها كل فتى وفتاة مرا بهما..

ووجد نفسه جالسا معها بين عشرة من الفتيان والفتيات .. كلهم من أثرياء المتمصرين ! ! ..

وهو لا يطيق صحبة المتمصرين ، لا لدافع عنصرى ، بل لأنهم صورة واضحة تمثل عيوب المجتمع كله ..

فالمجتمع المصرى ليس مجتمعا مصريا ، بل مجتمعا متمصرا ، مجتمعا يتكون من أفراد لا يكونون فيما بينهم شعبا واحدا صحيحا له شخصيته وله تقاليده وله تراث متحد .. انهم أفراد من الأتراك أو من الشوام أو العرب ، أو المغاربة .. أو .. أو .. وقد عاشوا فى مصر عشرات السنين وربما عاش أجدادهم فيها لمئات السنين ورغم ذلك فلم يصبحوا بعد مصريين ، ولم يندمج بعضهم فى بعض ، اندماجا كليا ليكونوا مجتمعا واحدا وشعبا واضح المعالم معروف الشخصية ..

***

ان كلا منهم يفخر بأصله التركى ، أو بنسبه الى قريش ، أو بأعمامه الذين هاجروا منذ عشرات السنين من بيروت الى امريكا !! وهم فى تفاخرهم هذا يضحون بشخصيتهم ، ويضعون انفسهم بين حدود الدول ، فلا تركيا ـ مثلا ـ تعترف بهم وترد لهم تفاخرهم بها ، ولا هم يعترفون بمصر التى آوتهم والبستهم وغمرتهم بنعيمها ..

وهذا هو سر التفاوت الكبير فى الشعور والاحساس بين

المصريين ، وسر ضعف الشخصية الوطنية المصرية ، وسر المآسى التى تقع على رأس مصر كلما احتار مصيرها بين أيدى الرجال الذين جمعتهم من بين الدول وتبنتهم !

وتبدو هذه الشخصية الضعيفة المفككة ، واضحة مجسمة بين افراد الجيل الجديد من طبقة ثراة المتمصرين ..

انهم شخصيات حائرة بين الغرب والشرق ، وبين الحديث والقديم .. وبين الجدود الذين عاشوا فى لبنان ـ مثلا ـ والآباء الذين استوطنوا مصر ، والأعمام وبنى الخؤولة الذين حطوا الرحال فى البرازيل أو فى فرنسا ، او فى الهند أو فى حضرموت ..

انهم لا يؤمنون بالجنسية المصرية التى يحملونها ، لأنهم حملوها لا ايمانا بمصر واعترافا بخيرها ، بل حماية لأموالهم واستغلالا للحقوق التى يمنحها الدستور والقانون لكل من ينتسب لمصر ..

واذا كان واحد منهم يحمل الجنسية الفرنسية أو الانجليزية ـ مثلا ـ فهو لا يؤمن بها أيضا ، لأنه يؤمن فى قرارة نفسه انه ليس فرنسيا او انجليزيا وانما حمل هذه الجنسية التجاء لقوى يحميه .. !

وهكذا ضاعت شخصيتهم ، عندما ضاع منهم بلدهم ، وضاعت عاطفتهم الوطنية ، وضاع شعورهم القومى ..

وتركزت كل عواطفهم فى اشخاصهم وفيما يملكون .. فكل مكان يأوى اليه الواحد منهم ليس له معنى فى نفسه الا انه مكان يجمع منه المال ..

***

ونظر الى الوجوه التى تحيط بالمائدة ثم نظر اليها ، فاذا بها اقرب اليهم منها اليه !!

وجلس صامتا يستمع الى أحاديثهم التافهة التى يتبادلونها

بالفرنسية حينا والانجليزية حينا ، وتطرق أذنيه نكاتهم المنقولة « القديمة » المبتذلة ، فيحاول ان يشاركهم الضحك بمجاملة لهم ولا يستطيع ، ويرقب كلا منهم وهو يحاول أن يبدو امريكيا او فرنسيا أو انجليزيا فيمتعض ويشمئز ..

ان هذه الطبقة من المتمصرين متهمة دائما بثقل الدم والظل ، والسبب أنهم عندما فقــدوا شخصيتهم القومية فقدوا قوة الابتكار .. الابتكار فى الحديث ، وابتكار النكتة ، وابتكار الراى ، وابتكار الاسلوب ، وأصبحوا مجرد مقلدين او متببسين ، وجفت عواطفهم فلم تلتهب أو تضىء .. انهم مجرد آلات نشطة لصــك النقود ! ! ..

وحاول أن يشغلها عنهم ، وعن كأسها التى تلهث غادية رائحة بين المائدة وشفتيها .. فأخرج مفكرة صغيرة من جيبه واخذ يكتب لها رسائل قصيرة ، ويطالبها بأن ترد عليه كتابة ، فأقبلت تتلقى رسائله وترد عليها وهى تضحك معتقدة ان هذه لعبة جديدة من « ألعاب المائدة » !

كتب لها : « انى أغار على شفتيك من الكأس »

فردت : « ان الكأس اطوع لى من شفتيك ! ! »

وكتب لها : « انى اريدك لى وحدى »

فردت : « انى لم التق بك بعد !! »

وكتب لها : « دعينى أحبك »

ردت : « أين ومتى !! »

وكتب : « سأحبك فى كل زمان ومكان »

وردت : « لا يبدو عليك انك قوى الى هذا الحد !! »

***

وقطع رسائلها فتى قام من حول المائدة وتقدم يطلبها للرقص ،

فقامت تراقصه وهى لا تزال تضحك على رسالتها الأخيرة ..

لم تستأذنه لترقص مع غيره ، ولم تلتفت اليه معتذرة ، بل ادارت له ظهرها والقت بجسدها بين ذراعى الشاب ليرقص به ..

وتبعها بعينيه ، والفتى يضمها الى صدره ، ويتحسس كتفها بكفه ، ويلصق وجهه بوجهها ، ويفرغ انفاسه فى اذنها ، ثم يطوف بشفتيه الى ان يصل الى عنقها .. وكان يعلم انها لا تحس بكل ذلك .. انها باردة بليدة كما هى دائما .. ولكن الفتى ، لا بد انه يحس ، وانه يشعر بهذا الجسد الذى يضمه ، وهذا الكتف العارى الذى يتحسسه ، وهذا الوجه الفاتن الذى يطوف فوقه بأنفاسه ..

وشعر ان هذا الفتى يستخف به ويستخف بوجوده ، وبدأت النار تشتعل فى راسه وتحرق أعصــابه ، ولكنه كبت النار فى جوفه ، فليس له حق عليها ليمنعها من أن تراقص غيره ولا المجتمــع الذى يحيط به يعتبر الرقص جريمة خلقيــة يؤاخذ عليها ..

***

وعندما عادت الى المائدة ، لم تلحظ انه غاضب ، ولم تحس بالنار التى يكبتها فى جوفه ، كل ما هنالك انه كان صامتا ، فانصرفت عنه الى كأسها وأصدقائها ، دون أن تسأله عن صمته

ولما تقدم شاب آخر يطلبها للرقص ، نظر اليها فى رجاء وطلب اليها الا ترقص « تشيك ــ تو ــ تشيك » اى « خد الى خد » !

ثم امسك بها وصاح وكأن خاطرا خطيرا قد ظهر له :

ــ « انتظرى » !

وفتح حقيبتها وأخرج منها قلم الكحل الذى تستعمله ، ورسم به ــ وهى مستسلمة ــ رسما صغيرا فوق خدها .. ثم افهمها

انها لو عادت بعد الرقص وقد زال هذا الوشم فسيعلم انهـا رقصت « خد الى خـد » ، وسيغضب ، وربما فقـدته الى الابد .. !

وضحك الجميع من حوله وضحكت معهم ، وقد ظنوا انهـا لعبة أخرى جديدة « من ألعاب المائدة » !

ورقصت ..

وعندما عادت كان الوشم الاسـود قد زال من فوق خـدها وانتقلت آثاره الى خد الفتى الذى كان يراقصها

وغضب ، ولـكنها لم تفقده ، لا الى الأبد ، ولا الى سـاعة واحدة ..

وبدأ يحاول ان يطفىء غضبه بكأسه ، لـكن الخمر كانت وقودا لناره واحس ان عينيه تنفثان اللهب ، وأن يديه قد دبت فيهما الحمى ، وان صدره يكاد ينفجر كالبركان ..

ولم يكن أحد ممن حوله يحس بهذه النار .. ولم يكن محتملا أن يدور بخلد واحد منهم ، ان هناك من يغار على هذه الفتـاة الى هذا الحد .. هذه الفتاة بالذات التى كانت لـكل منهم ليلة ، والتى لا تزال حقا مكتسبا لـكل منهم ..

ولـكنهم أحسوا بالنار التى تعتمل فى صدره ، عندما قام شاب ثالث يطلبها لترقص معه ، فما كادت تهم بالنهوض لترتمى بين ذراعيه ، حتى أمسكها من رسغهـا فى قسـوة عنيفة ، وصرخ « لا . . » ثم جذبها ليحطها فوق مقعدها ..

***

ووجم الجميع ..
وتبادلوا نظرات متسائلة حائرة لا تنطق ولا تبين ..
ربما اعتبره بعضهم فلاحا متوحشا حتى يصرخ هذه الصرخة ،

ويحرم على فتاة بجانبه أن ترقص .. ربما اعتبروه من الطبقة السفلى الشعبية التى تتمسح بمجتمعهم الراقى الذى لا يعترف بكثير من عواطف الشـعب الحقـير وذوى الجلاليب ، وأولها عاطفة الغيرة على النسـاء .. ولـكن واحدا منهم لم يعبر عما يعتقده فيه ، ولم يرد على صرخته ، حتى الشاب الذى قام للرقص عاد الى مكانه فى صمت ..

أما هى ، فقد انشقت شفتاها عن ابتسامة نشوى ، وانفتح انفها كأنها تشم رائحة جسد يقترب .. لقـد أحست بشىء .. احست بأصابعه وهى تضغط على رسغها فى قسوة وعنف .. هذا كل ما أحست به ، وكان كافيا ليحرك الحيوان الراقد فى عروقها ..

ودار بعينيـه المشتعلتين ثورة ، فى وجوه من حوله ، فلما رآهم وجوما صامتين ، مد يده فى جيبه وأخرج كل ما معه من نقود وألقى بها فى وسط المائدة وقد اعتقد انها تكفى لدفع حسابه وحساب الفتاة ، ثم التفت اليها وقال لها فى صوت آمر حاول أن يكون خفيضا : « هيا بنا » وقبل أن تبـدى اعتراضا غرز أصابعه فى ذراعها وشدها وراءه .. وخرجا !

خرجا ، وقد عرف الجميع ليلتها ان الفتاة قد أصبح لها فتى يغار عليها ، ولا يقبل أن يسطو أحد عليها ، أو يزاحمه فيها ..

***

وقد مرت شهور ، وهو يدور حولها كالمجنون يطرد عنهـا الفتيان ، ويرسم لها خطواتها ويمزق أعصابه من أجلها ، حتى آمنت الدنيا بأنها له وانه يحبها .. هى وحدها التى لم تكن تعلم انها له ، ولم تكن تعلم انه يحبها ولا انها تحبه لأنها لم تكن تعلم عن الحب الا انه أجساد تلتصق ..

وكان آخر ما نالته منه هو جسده .. فقد كان يعلم طبيعتها ، وكان يعلم انه ليس بالنسبة لها الا طبق طعام تشتهيه ويوم تفرغ منه لن تعود اليه ، ويوم تناله سيكون يوم يفقدها .. فحاول ان يحرمها من جسده وحاول أن يحرم جسدها من غيره .. كان يريد ان يعذب هذا الجسد ويعوده الحرمان حتى يقتل الحيوان الذى يعيش فيه ، ويخمد العواء الذى ينطلق منه كل ليلة ، فيرق ويشف عن قلبها ويفرج عن روحها حبيس هـذا اللحم البـارد والعظام الغليظة ..

وكانت تعتقد عندما خرجت معه انه سيصحبها معه الى بيته ان كل ليلة من لياليها تنتهى دائما فى بيت ..

ولـكنه سار بها فى طريق الـكورنيش .. سار بها طويلا ، دون ان يتكلم .. وكانت ترفع اليه وجهها بين كل خطوة واخرى ، وفى عينيها تساؤل لا يجيب عليه ، وكانت تتعجل خطاها لتعرف اين مصيرها ، بينما انفاسها تطوف حوله فى رغبة محمومة تدفع اصابعها لتضغط على ذراعه ، أو تمسح على ظهره ، أو تتحسس وجهه ..

***

ولما طال بهما الطريق ، اعتقدت انه لا يملك أجرة « تاكسى » يحملها ، فتوقفت عن السير لتقول له انها تحمل نقودا تكفى أجر سيارة ..

ولـكنه جرها بجانبه فى عنف ، وعاد يسير بها صامتا .. وبدات تتململ ..

وبدات تقف بين كل خطوة واخرى لتحتج وتشكو علو كعب حذائها الذى يضايقها فى خطواتها ..

ثم صرخت : « دعنى أعد حيث كنت » !

وتوقف عن السير ، واستدار لها وقد أمسكها من كتفيها ، ونظر اليها وقد قفز قلبه يطل عليها من بين جفنيه ..

ولم تر قلبه ، ولـكنها رات عينيه ، وأحست بيـديه فوق كتفيها ، فبدأت شفتاها ترتعشان وانفاسها تتهدج ، وأسنـانها المتحفزة تلتمع فى الظلام ، ومدت يدها تخلع نظـارتها السوداء بينما تقترب بوجهها منه وتلصق صدرها بصدره ..

وابعدها عنه سريعا ..

ثم جذبها ليسير بها من جديد وظل ممسكا بيدها فى يده ، ضاغطا عليها فى قسوة وكأنه يخاف أن تهرب منه ، ثم بدا يتكلم

بدا يقص قصـته .. طفولته المحرومة ، وشبـابه المعذب ، ومبادئه المتطرفة ، وكفاحه المر ، وفقره الذى يفخر به ..

وكان يعلم انه يلقى بقصته فى الهواء .. وانها لن تفهم منها حرفا ، ولن تهتز لفصل من فصولها ، ولن تشاركه ماضيه ولا حاضره ولا مستقبله ..

لـكنه كان يريد أن يسرد قصته فى هذه الساعة بالذات ربما لنفسه .. فقصته وحدها هى التى تريح أعصـابه ، لأنها كل ما يملك فى هذه الدنيا ، ولأنه كتبها بنفسه .. كل حرف فيها وكل كلمة ..

***

وكانت تهز رأسها فى مقاطع حديثه وتزوم .. لمجرد المجاملة ..

ثم توقفت عن هز رأسها وعن الزوم ، وبدأت تجر ساقيها تعبا من طول الطريق ، بينما دموع بطيئة بدأت تنحدر فى تراخ فوق خديها ..

وكانت الساعة الخامسة صـباحا عندما انتهى من قصته ، وعندما أوصلهما الطريق الطويل الى بيتها ..

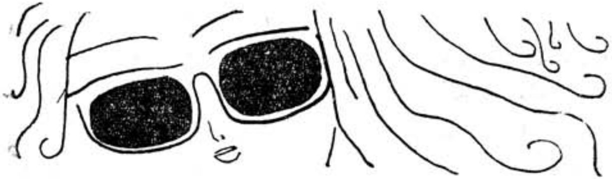
كان قد هد جسدها التعب .. كانت كطفل يتيم أنهكه التشرد والجوع ، يجره مسكين يستجدى به .. !

كانت هى الطفل الجائع .. وكان هو المسكين الذى يستجدى الحب ..

وتركهـــا أمام بيتها دون وداع ، ودون أن تقوى حتى على الالتفات اليه ..

ورغم ذلك قابلها فى اليوم التالى ..

قابلها ليصحبها الى الـكنيسة ..



٤

ولم تصدق عينيها عندما وقف بها أمام باب الـكنيسة وهم بالدخول .. !

ماذا يريد أن يفعل بها فى هذا المـكان ؟

لقد سبق لها أن جاءت الى الكنيسة عندما احتفل بزواج بعض صديقاتها ، وهى تعلم ان بعض الفتيات يترددن على الـكنيسة فى أيام الآحاد ليعرضن أثوابهن الجديدة ويستعرضن الشباب .. ولـكن ما جدوى حضورها اليوم ؟.. ان واحدة من صديقاتها لا يحتفل بزواجها ، واليوم ليس يوم أحـــد ، ولا هى تريد أن تعرض ثوبا جديدا أو تستعرض الشـــبان .. ثم انها تعلم انه مسلم وليس مسيحيا .. فلماذا جاء بها الى هنا .. هذا المجنون؟

واستقبلهما البهو الـكبير الصامت ، ولفهما الهدوء الجميل المريح ، وغاصا فى الظلال الباهتة التى تطلقها النوافذ الملونة ، وانتحى بها مقعدا قصيا بجوار عمود ضخم يقف فى روعة وكبرياء كأنه عصب الدنيا ..

وهمست فى صوت محشرج تخنقه الرهبة :

ـ ماذا نفعل هنا ؟ ..

— اغمضى عينيك ، وستعلمين ! ..

واغمض عينيه قبل أن تغمض عينيها ، واطلق روحه تبحث عن ربه ليلتمس منه السكينة والراحة ، بينما انغام هادئة وهمية كتراتيل الملائكة تزفه نحو النور .. نور الايمان بالمجهول .. نور ينبثق من الظلام الذى يحيط بالبشر منذ الأبد وهم يبحثون عن الحقيقة والحق ..

ولم تكن المرة الأولى التى يتردد فيها على بيوت الله ، فقد كان من عادته كلما ضاق روحه بجسده ، وكلما ضعفت أعصابه امام كفاحه ، وكلما تطرق الحقد والفيظ الى صدره ، أن يهرع الى هناك .. الى جامع أو الى كنيسة ، فكلاهما بيت طاهر من آثار معركة الدنيـــا ، وفى كليهما يخلص الناس لله ويحسون بحقارة شأنهم امام الخالق الغفور الرحيم .. لم يكن يصلى وانما كان يقبع صامتا منزويا فى ركن بعيد ، ويتلو قصـــته فى صدره ثم يحاسب نفسه عليها أمام الله .. يحاسب نفسه على كل سطر منها ، وحسابه دائما عسير ، وعقابه الذى يوقعه على نفسه أشد عسرا ..

وفتح عينيه لينظر اليها .. لم تكن مغمضـــة العينين ، ولم يكن يبدو عليها الخشوع أو الخشية ، وانما كانت ساهمة تنظر الى بعيد ..

وسألها فى صوت هادىء حنون :

— فيم تفكرين ؟ ..

— فى هذا القسيس ! ..

وأشارت بأصبعها الى قس شاب ، غض الاهاب ، يفيض وجهه بالطهر ، وينتشر شعر ذهبى اللون فوق رأسه كأنه هالة الملائكة .. وكان راكعا أمام الهيكل ذائبا فى صـــلاة هامسة ، بينما الجسد

القانى مصلوب أمامه ، وروح القدس يحوم من حوله ..

وقطب حاجبيه متسائلا :

— بم يوحى اليك هذا القس ؟ ..

— خسارة .. خسارة كبيرة .. هـــذا الشـــباب ، وهذا الجمال ، يسجن هكذا داخل أسوار الـكنيسة ! !

— انه سعيد .. أسعد منك ومنى ! !

— من قال هذا ؟ .. كيف يكون سعيدا وهو محرم عليه الاتصال بامرأة ، ومحرم عليه أن يرقص ، ومحرم عليه أن يشرب كأســـا ومحرم عليه أن يكون رجلا ؟ !

— ان أحدا لم يحرم عليه شيئا ، ولكنه زهد فى كل شىء ! !

— ولماذا أحرم أنا منه ؟ ! ..

قالتها وهى تضغط على شفتيها بأسنانها ، وصدرها يهتز فى عنف فوق ضربات قلبها ، وكأنها تقاوم رغبة وحشية فى أن تهب من مقعدها لتلتهم القس وتعتصره بين ذراعيها ..

***

وتحركت كفه لتصفعها .. لم يكن يعتقد أن تبقى حيوانا كما هى حتى داخل الكنيسة ، ولم يكن يعتقـــد أن تتحرك شهيتها الشرهة حتى لمرأى قس شاب ..

ولكنه قبض كفه قبل أن تصل الى وجهها لتصفعها .. وتذكر انها مريضة — أو هكذا كان يعتبرها — وقال فى هدوء وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه :

— انك لم تحرمى منه .. تستطيعين دائما أن تصلى الى قلبه وروحه عندما تؤمنين بدعوته ..

— عدنا الى القلب والروح .. خبرنى بالله عليك .. اذا كان كل ما فى الدنيا قلوب وأرواح فماذا يكون حالنا ؟ .. وكيف

تختار بين الشبان الاقوياء والعجائز المهدمين ؟ .. وكيف نتخلص من أجسادنا ؟ .. ولماذا خلقنا الله ذكورا واناثا .. جنسين يشتهى كل منهما الآخر ؟ !

وابتسم قبل ان يجيبها.. ابتسم سعيدا.. لقد بدات تتساءل وتناقش ، أى انها بدأت تفكر ، وبدأت تحاول أن تفهم .. وكانت من قبل لا تتساءل ولا تناقش ولا تحاول أن تفهم ، كانت حيوانا جميلا يأكل ويشرب ، ويشبع جسده ، ويدور كالآلة الصماء .. بلا مبدأ ، وبلا ايمان ، وبلا هدف .. انها بدأت ترتفع عن مرتبة الحيوان والآلة لتكون انسانا له عقل ..

***

ومد ذراعه ووضع يدا حانية فوق كتفيها ، ونظر فى عينيها ، ثم قال فى صوت هامس ، وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

— ان أجسادنا آلات يديرها ويسيطر عليها القلب والعقل ، ويديرانها ليصلا الى هدف يؤمنان به .. فاذا فقد القلب والعقل سيطرتهما على الآلة ، أو اذا لم يكن لهما هدف يؤمنان به ، دارت الآلة دون أن تنتج شيئا .. انك انسان لأنك — مثلا — تريدين ثوبا جميلا ابتكره لك انسان آخر .. وقد ابتكره بقلبه وعقله لا بجسده .. ولو لم يوجد هذا الانسان الآخر ، لكنت حيوانا أو انسانا بدائيا لا يملك هذا الثوب الجميل .. وأنت انسان لأنك تأكلين بالشوكة والسكين طعاما مطهيا يقدم اليك فى صحاف منمقة فوق مائدة منسقة ، ولو لم يوجد انسان فنان ذو قلب وعقل يبتكر الشوكة والسكين ، ويبتكر طهى الطعام ، لكنت الآن تأكلين بأصابعك وعلى الارض ، لحما نيئا وربما كان لحما آدميا .. ان القلب والعقل هما اللذان صنعا الدنيا وهما اللذان يسيران بها ، وهما سبيل المتعة الحقيقية

واللذة القصوى .. أما الجسد فهو عبد لهما أو هو الطريق منهما واليهما .. لماذا تفضلين شابا على آخر ، وتختارين واحدا من بين عشرات ؟ .. انهم جميعا من جنس واحد ، وقد يتساوون فى حسن الهيئة والمنظر .. ولكن قلبك يختار واحدا فقط لأنه يتجاوب معه ، ولأنه يجد فيه اشباعا لعاطفته ، وقد يختاره العقل لأنه يجد فى هذا الشاب صدى لآرائه أو لأنه يحقق الاهداف التى يسعى اليها .. وقد يشترك القلب والعقل فى اختيار الرجل الذى تفضلين عندما يجتمع فيه الايمان — أى العاطفة — والهدف .. ثم عندما تلتقين بهذا الرجل فأنت لا تلتقين بجسده ، فلقاء الجسد لقاء عابر لايدوم الا دوام المتعة الزائلة ، ولا يختلف فيه رجل عن رجل .. ولكنك تلتقين بقلبه وعقله وروحه ، وتلتقين بشخصيته المعنوية التى تحددها تصرفاته المنبعثة من هذا القلب وهذا العقل .. انك تلتقين بآرائه التى يعبر عنها بحديثه ، وتلتقين بمشاعره التى تعبر عنها عيناه وخلجات وجهه ، وتلتقين بماضيه وحاضره ومستقبله بما يوحيه اليك من فكر ..

***

وسكت ، وخيل اليه انها تعانى صعوبة فى تفهم ما يقول ، وان عينيها احتارتا خلف نظارتها السوداء ، وهما يتتبعان شفتيه ليلتقطا كلماته .. وسكتت برهة ، كأنها تحاول أن تهضم ما سمعته .. ثم صاحت فجأة صيحة خافتة ، وكأنها وجدت مفتاح حيرتها :

— والنتيجة .. النتيجة التى يصل اليها الرجل والمرأة ؟ ..

— الحب !

— وما هى آخرة الحب ! ! رجل وامرأة فى فراش ! ! لا تنكر هذا أيضا ..

واستطردت :

ـ انى أفضل أن اختصر الطريق لأصل الى نهايته مباشرة !..

ـ ليس للحب نهاية .. انه الحياة كلها ..

ـ وما هى الحياة ؟ .. رجال ونساء .. وماذا يريد الرجل من المراة ؟ .. خبرنى ؟ ..

ـ انه يريد منها أن تجعله رجلا ! ..

***

والتفتت اليه وعلى شفتيها ابتسامة كأنها بطاقة دعوة ، وقالت فى صوت تتهافت نبراته :

ـ تعال معى ، وسأجعلك رجلا ! !

ـ ان الرجل يعنى كفاحا فى ظل مبدأ وفى سبيل هدف .. والمراة هى التى تعينه على هذا الكفاح ، وتمده من حنانها قسوة على نفسه ، ومن ضعفها قوة على أعدائه ، ومن رقتها خشونة ، ومن ...

ـ أليس من حقها أن تقبله مثلا ؟ ..

ـ ان القبلة لقاء بين روحين .. و ..

ووضعت كفها على شفتيه لتسكته ، وقالت وهى تقرب وجهها :

ـ اذن دعنى ألتقى بروحك !

ـ اننا الآن فى لقاء مع الله وفى معبده ..

وازاح كفها عن شفتيه ، وابتعد عن أنفاسها التى تلفح وجهه ، ولكنها لاحقته قائلة :

ـ لا تعص الله فيما خلقنا له .. ألم تعلم بعد انى أريدك ؟ ! .. أريدك كما خلقنى الله وكما خلقك ! !

ـ ان الله خلقنا أرواحا ...

ـ واجسادا ! !

ـ كلاهما معا ..

ـ اذن خذنى روحا وجسدا ! !

ـ ولكنك لا تريدين منى الا الجسد ! ..

ـ لا تدعنى انتظر .. حرام أن تضيع الأيام فى كلام !

ـ سنلتقى يوما .. ولكنه ليس اليوم ! ..

وهبت واقفة وهى تزفر عن صدرها أنفاس الضيق ، وقالت كأنها تصرخ : « دعنا نخرج من هنا » ..

وخرجا من بيت الله الى بيت الناس .. الى الدنيا ! ..

ولم تنس قبل خروجها أن تلتفت الى القس الشاب ، وتسلط عليه نظارتها السوداء برهة ، ثم تتمتم وهى تهز رأسها فىحسرة : « خسارة .. خسارة كبرى » ! !

ومن يومها تعودت أن تناقشه ..

***

وكشف النقاش عن ذهنها الصافى ، الذى عاش بليدا خاملا يردد الأحاديث التافهة ، والنكات « القديمة » المبتذلة ، ويتوارى رعبا أمام جسدها الشره ..

كانت فى نقاشها تدافع عن حق جسدها فى جسده ، وكان يدافع عن حق روحها وقلبها .. وفتحت المناقشة أمامها أبوابا مغلقة من أسرار الحياة النظيفة ، وبدأت تقرأ ، وتقرأ فى فهم .. قرأت فى الشعر ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الأدب القصصى .. ولكنها ظلت دائما تقاوم لتنتصر للجسد ..

واستمر نقاشهما شهورا .. كانا يتقابلان كل يوم ، وكانا يقضيان الليل حتى ساعات الفجر فى بيته .. لقد ملت الملاهى ، وملت الرقص ، وملت هذه الضوضاء .. ووجدت فى الجلوس

اليه متعة ، وعرفت ان الحديث فن جميـــل ، وان النكتة هى بارقة ذهن وليست جملة مرددة مبتذلة ..

وعرفت أولا أن بيته ليس مجرد فراش .. فلقد حرمها من فراشه ، كما حرمها من كؤوس الخمر الا ما يتصادف وجوده ، وحرمها من الأكل الكثير الا ما تستطيع نقوده أن توفره لها ..

كانا يجلسان أحدهما الى الآخر ليلا طويلا ، يلهيها بحديثه وقصصـــه ، ويجرها الى مناقشته ، وكان الحيوان الراقد فى عروقها يغلبها احيانا فتضيق بالحديث والمناقشة ، وينطلق العواء من صدرها ، فتهب فى وجهه تطالبه بحق جسدها ، وتمد ذراعيها لتعتصره بينهما وتخلع نظـــارتها الســـوداء حتى لا ترى الا ما تتحسسه بأصابعها ، ويتأرجح الصليب المظلوم حول عنقها تأثرا يريد أن يفر منها ، ولـكنه كان يقاوم كل ذلك وكان يصدها فى حزم وقسوة ، ويلهيها عن نفسه حتى تهدأ ، ولم تكن تهدأ الا اذا سالت الدموع فوق وجنتيها ..

***

ولم تكن مقاومتها باليســـيرة عليه .. فقـــد كان يريدها كما تريده .. وكان يقاوم نفســـه كما يقاومها .. وكان ســـنده فى مقاومته ، خوفه من هذا الحيوان الذى يعوى فى صدرها ..

كان يخافه ، ويخاف هـــذه الأظافر التى مزقت جلده عندما التقى به ـ بهذا الحيوان ـ لأول مرة .. ويخاف هذه الاسنان التى تصطك بأسنانه وتلتهم شفتيه ، فكان يجب أن يقتل الحيوان فيها لتخلص له بشرا سويا ، وجسدا ينتشى برقة الروح ، وطيبة القلب ، وسمو العقل ..

وعلى مر الأيام تعودت أن تقاوم نفسها كما يقاومها .. فكان كلما ثار الحيوان فى عروقها ، ارتفعت دماء خجلة فى وجنتيها ،

وكبتت رغبتها الجامحة وهى تضـــغط بأصـــابعها المحمومة على ذراعيها ..

كانت تخجل منه ، ظنا منها انه لايريدها ، ثم بدات تخجل من نفسها عندما آمنت انها بشر وليست حيوانا .. وانها أنثى وأن أول ما تتميز به الاناث هو فضيلة الحياء ..

واصبح لها هدف ..

كان هدفها ان تصبح كما يريدها حتى تناله ، وحتى تصبح له ويصبح لها ..

وبدات تقول له « احبـــك » .. قالتها اول مرة فى جفـــاف وانطلاق كأنها تقول « أريدك » .. ثم بدات تقولها فى رقة ، وفى نبرات ناعمة تنبعث من قلب بدأ يتحرك بعد سبات طويل ..

وكانت تردد له احيانا مقطعا من شعر « بول جيرالدى » فى كتابه « انت وانا » :

« احبك .. احبك .. احبك ..
« انى مجنونة بك ..
« انى مجنونة .. انى اقول دائما نفس الـكلمات :
« احبك .. احبك .. احبك ..
« هل تفهمنى ؟ ! ..

***

ولـكن حتى كلمة « احبـــك » حرمها عليها ، فهو يكره أن يقولها او يسمعها ..

ان الحب اقوى واقدس من ان يعبر عنه بكلمة توضـــع على طرف لسان ، انه عاطفة مقدسة تتمكن من القلب وتتملك النفس حتى يعجز اللسان عن التعبير عنها ، انما تحسها فى كل كلمة حتى لو لم تكن كلمة « احبك » ، وتحسها فى كل خلجة ، وفى كل

هزة رمش ، وفى كل دمعة ، وفى كل ابتســـامة .. انه عاطفة تطير بك حتى ليراك كل الناس طائرا دون أن تصرخ فيهم ليروك ..

ولم تعد تقول له « أحبك » ..

وأصبحت كلها حبا ! !

ورغم ذلك لم يكن يثق فيها ، او لم يثق فى جسدها .. كان يعلم ان هذا الجسد سيخونه بمجرد ان يدير عنه عينيه .. فكان يشغل كل ايامها ودقائقها حتى لا تبتعد عنه .. ولـكن حدث ما توقعه ..

فقد سافر يوما الى القاهرة لبعض شأنه ، وقضى فيها ليـلة واحدة ، عاد بعدها الى الاسكندرية ، ليلتقى بها ويسألها فى لهفة :

ــ أين قضيت ليلتك ؟ ..

ــ التقيت بالرفاق القدماء فى ملهى « الرومانس » ثم ...

وترددت ، وارتعشت شفتاها ، كأنها لا تريد أن تقول ، فصرخ فى وجهها :

ــ ثم ماذا ؟ ..

ورفعت اليه وجهها ، وحدثته من وراء نظارتها السوداء قائلة :

ــ لقد ذهبت مع « فلان » الى بيته ! !

ــ ماذا حدث هناك ؟ ..

ــ حدث ما كنت تخشاه ! !

***

وصرخ كالمجنون يسبها ويلعنها ، وارتفعت ذراعاه فى الهواء تنهال عليها بصفعات محمومة قاسية ، ثم اظلمت الدنيا فى عينيه واصبح كالثور الجريح الهائج ، وامتدت أصـــابعه تقبض على خصلات شعرها فى عنف حتى أوقعها على الارض وانهال عليهـا ركلا بقدميه ..

وقد اخطـأ ..

اخطأ خطـــأ كبيرا عندما فقد أعصابه .. فقد أيقظ الحيوان الذى كاد يموت فى جسدها .. نفس الحيوان الذى كان يصحو كلما ضربها فتاها الأول الايطالى ، وكلما مزق جسدها بيـــديه واسنانه ..

لقد تيقظ الحيوان ، وبدأ جسدها يتلوى تحت الصـــفعات نشوان وكأنها افعى حركها الدفء ، بينما انسدلت جفونها فوق عينيها لتنقلها الى دنيا من الجحيم المشبوب ، وانفرجت شفتاها عن آهة مكتومة تنطق باللذة الـكبرى ..

ومدت ذراعيها نحو السماء كأنها تستغيث من عذاب ليس له آخر ، بينما لا تزال تتلوى وتعرض كل مكان من جسدها للصفع والركل .. ثم ارتفع جفناها عن عينين جائعتين نهمتين ، وانشبت اظافرها فى الهواء تبحث عن جسده ، واصطكت اسنانها تبحث عن شفتيه ..

وأفاق لنفسه قبل أن تناله ..

وابتعد عنها حيث الصق ظهره بجدار بعيـــد ريثما يلتقـــط انفاسه ..

وصرخت كالذئبـــة المسعورة : « لا تتركنى .. اضربنى .. اضربنى ايضا .. بقسوة » ! !

وهبت من رقدتها حيث اوقعها على الارض ، وحاولت ان تصل اليه ، ولكنه امسك بها من ذراعيها فى قسوة ، واخذ يهزها فى الهواء بعنف .. حتى افاقت من نوبتها ولم تفق الا وهى تبكى

هذه هى .. تماما كما رآها فى أول ليلة التقى بها !!

ولكنها فى هذه المرة بكت طويلا .. وكانت تبكى على نفسها ، وفى دموعها استغفار ، وخجل وحياء ..

لقد اصبحت تعلم انها مريضة وانها فى حاجة الى علاج طويل وصمت .. صمت أياما طويلة ..

وتعلم أن عقابها الوحيد لا يتعدى الصمت ، فقد كانت تضيق به حتى تفقد أعصابها .. وكانت تحاول بكل جوارحها أن تخرجه عن صمته .. كانت تسأله فلا يجيب الا بهزات من راسه ، وكانت تقرأ له فى كتاب فلا يستمع ، وكانت تكتب له ـ وهى بجانبه ـ فلا يرد على رسائلها ، وتشترى له الهدايا التى تعلم انه يفضلها فيهملها ولا يكون لها أثر الا كلمة : « متشكر » .. قصيرة هادئة .. ثم يلقى بالهدية جانبا ..

الى أن يعتقد أنها نالت ما يكفيها من عقاب فيعود اليها رويدا رويدا .. حبيبا كما كان ..

ولم يعد يضربها .. لم يضربها قط خلال السنوات الخمس التى عاش فيها حبهما .. انما عودها احترامه .. احترامه لروحها وجسدها .. وعودها أن تطالب الناس باحترامها ، حتى بلغ من احترامها لنفسها أن قاطعت كل شاب التقت به فى ماضيها ، قاطعت حتى أصدقاء طفولتها ، ومحيط عائلتها ..

ولم يعد يخشى أن يبتعد عنها ، فانها هى نفسها أصبحت تخشى أن تبتعد عنه .. لم تعد تشعر بالثقة فى نفسها ، ولم تعد تشعر بكيانها الجديد ، كيان الفتاة الطاهرة التى تؤمن بقلبها وعقلها : الا بجانبه .. فكان يصحو ليجدها فوق راسه ، ولا ينام الا بعد أن يوصلها الى بيتها ، وكانت دائما معه حتى عندما يغادر الاسكندرية متنقلا هنا وهناك ..

وعرفت عائلتها انها أحبته ، واطمأنوا الى هذا الحب وان لم يرحبوا به ، فقد رأوها تتغير وتنقلب الى فتاة عاقلة هادئة تفخر بها كل عائلة ..

ولكن أصدقاءه لم يطمئنوا الى هذا الحب ، كانوا يخافون عليه منها .. يخافون على مستقبله من ماضيها ، ويخافون على مبادئه من مبادئها ، ويخافون على كفاحه من ان تخمده أنفاسها أو تضعفه صحبتها له .. وطالما حاولوا ان يفرقوا بينهما .. وما اكثر ما قالوا له ، وما قالوا لها ، ولكنهما ظلا معا دائما ، حتى عرفت به وعرف بها ..

ولم يكن أحد يدرى انها وحى كفاحه ، وان المعركة التى خاضها معها ليجعل منها فتاة طيبة ، هى نفس المعركة التى خاضها ليصلح من وطنه ، وان انتصاره على مرضها ، هو نفس النصر الذى ارتفع به حتى أصبح نائبا من نواب أمته ..

كانت المعركة بينه وبينها هى معركة بين المثالية والمادية ، وهى نفس المعركة التى اشترك فيها لينصر المثالية الوطنية على مادية أصحاب الأموال الذين يحكمون مصر ..

كان يحارب فيها البلادة والاستسلام ، وكان يحارب البلادة والاستسلام فى شعبه ..

كان يحارب فيها الجهل ، وكان يحارب الجهل فى بنى قومه..

كان يحارب فيها ضعف وطنيتها ، وكان يحارب ضعف الوطنية فى المصريين كلهم ..

وهى لم تكن مصرية ، ولكنها ولدت فى مصر كما ولد فيها ابوها وجدها ، ثم اختارت العائلة ان تبقى « حماية » فرنسية بعد الغاء الامتيازات . .

***

ولم تكن تحس بعاطفة نحو فرنسا ، الا عاطفة اللغة التى تتحدثها ، رغم انها تحمل الجنسية الفرنسية ، ورغم أن لها شقيقين جندا فى جيش فرنسا الحر وقتلا .. قتلا فى سبيل

لا شيء يؤمنان به ، وبلا عاطفة تدفعهما الى الموت ، الا هــذا الجواز الفرنسى الذى يحملانه ..

ولم تكن تحس بعاطفة نحو مصر ، رغم انها لا تملك شيئا الا ما تقتطعه من جسد مصر ، وليس لها من مأوى الا مصر ..

وبدأ يقنعها بأن يكون لها وطن .. وأن يكون وطنها مصر .. فالوطن هو المكان الذى تطمئن قدماك فوق أرضه .. هو التراب الذى يضم قبر الأجداد ، ويحمل مهد الأبنــاء .. هو ذكريات الماضى ، وجهاد الحاضر ، وامل المستقبــل .. هو حيث تولد وحيث تعيش ، وحيث تموت ، وحيث تعود من غيبتك ..

وكان يدعوها أحيانا « جوليت » بعد أن قص عليها قصة مدام جوليت آدم ، السيدة الفرنسية التى آمنت بمصر وحقوق مصر ، فوقفت بجانب مصطفى كامل تمده بعونها وتدعو لمبادئه ، وتقرع النواقيس فى أنحاء العالم للايمان بدعوته ..

وقص عليها قصة « أم عبد الله » :

« كان المصريون قد الفوا فى ثورة عام ١٩١٩ بوليسا وطنيا يسير مع المظاهرات يحفظ النظـام فيها ، ويسعف الجرحى ، وينقل القتلى ، وأصدر الحاكم الانجليزى أمرا باعـدام كل من ينضم الى هذا البوليس الوطنى أو يقوم بعمله أو يحمل شارته .. فانقلب البوليس الوطنى الى بوليس سرى ..

وكان عبد الله طفلا فى العاشرة من عمره يقف بجوار باب بيته فى درب الجماميز وهو يحمل قلة ماء ، فقدمهـا للمتظـاهرين ليرطبوا حناجرهم التى شقها الهتاف ، وليرطبوا النار التى أحالت صدورهم الى براكين .. وكان عمـل عبد الله فى عرف الجنود الانجليز عملا يقوم به البوليس الوطنى .. فسددوا فوهات بنادقهم الى قلبه الطاهر .. وقتلوه !

وكانت ام عبد الله تطل من النافذة حين رات جثة طفلها تجندل على الارض ، فكتمت صرختها بين شفتيها ، والتقطت قلة ماء أخرى حملتها بين يديها ، ونزلت بها لتقف الى جانب المظـاهرة تسقى المتظاهرين ، بينما أهل الحى يحملون وليدها الى داخـل البيت .. ولم تكن المظاهرة قد انتهت عندما مرقت رصـاصة ظالمة اخرى لتخترق قلب أم عبد الله ..

وقص عليها عشرات القصص الأخرى عن بطـلات مصر .. قص عليها تاريخ مصر كله .. وما فعله الهكسوس ، والرومان ، والبطالسة ، والترك ، والمماليك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وما فعله بها المتمصرون ..

وقضى الليالى والأيام وهو يقنعها بأن شعب مصر ليس رعاعا ، انما هو أطيب الشعوب وأقربها الى المثالية .. شـعب قضى الاجيال وهو يكافح فى سبيل حريته ، وفى سبيل حقه فى لقمـة العيش .. ورغم ذلك لم يمل الـكفاح ولا الجهاد ولم يستسلم ، ولم يتنازل عن حريته ولا عن لقمته ، اللتين حرم منهما منذ آلاف السنين ، فالبذرة التى أنبتته بذرة طيبة تثمر حتى فى الجفاف ، والجوهر الذى خلق منه يبرق حتى من تحت ركام الطين ..

وآمنت بمصر .. وكفرت بالجواز الفرنسى الذى تحمله ..

ولم يكن الفضل كله له .. فقد حدث ان خسر والدها جزءا كبيرا من ثروته فى مضاربات البورصة ولم يستطع أن يعوضه .. وبدأت العائلة تقتصد فى معيشتها ، ولم يعد لها هـذا الثراء العريض ، ولم تعد تستطيع هذا الاسراف ، ولا هـذه المظاهر الفخمة التى عرفت بها .. وبدأت الفتاة تحس انها فقدت السلاح الوحيد الذى كان يحميها ويحمى عائلتهـا فى وجه الدنيـا ..

وبدات تبحث عن سلاح آخر ، ولم يكن فى يدها من سلاح الا ان تؤمن بالمبادىء السامية ، وان تؤمن بمصر لتحتمى بها وتحمى ما بقى لها من ثراء ، وان تؤمن بالدستور والقانون والشعب والعدالة الاجتماعية .. بعد أن لم يعد لها من النفــوذ وســطوة الفنى الفاحش ما تستطيع أن تنتصر به على الدستور والقانون والشعب والعدالة ، كما يستطيع بقية الاغنياء ..

وابتعدت عن الطبقة التى كانت تعيش فيها .. وعندما ابتعدت عنها استطاعت ان تراها على حقيقتهــا .. رات النفــاق ، والخداع ، والكذب ، والخسة ، وعبادة المــال ، والكفر بكل مقومات الانسان .. وعندما رات كل ذلك ازدادت تعلقا به ، هو الفقير ، المكافح فى سبيل مبدئه ومستقبله ..

لقد كان حبه لها هواية .. فأصبح ضرورة !

ومرت السنون ، وقد تعودت أن تقضى ايامها فى بيته ، بعد ان قتلت الحيوان الذى يعيش فى صدرها ، قتلته ببلسم شــاف قطرته فى عروقها قطرة بعد قطرة ، ويوما بعد يوم.. ايام قضاها كلاهما فى حرمان قاس ، الى أن استوت له بشرا سويا وجسدا ينتشى برقة الروح ، وطيبة القلب وسمو العقل ..

وانتهت هذه الايام عندما بدات تفكر فى الزواج ! !

كان كل شىء حولها يدعوها لان تكون زوجة .. حاجتها اليه ، والبيت الذى تقضى فيه معظم ساعات حياتها الا أقلها ، واهتمامها بشئونه الخاصة حتى انها أصبحت تدبر نقوده ، وترتب ثيابه ، وتطهو طعامه ..

لم يبق الا أن تصبح زوجته ، وام أولاده ..

ولـكنه لم يتزوجها ..



٥

انه أول من يصفح عن ماضيها الذى لا ذنب لها فيه ، وأول من يقدر سموها ونبلها وطيبة قلبها ، وأول من يعترف بفضلها عليه ، بل انها من صنع يديه ، وقد صنعها لتكون فتاة مثالية ومواطنة مثالية ، وزوجة مثالية ، وأما مثالية ..

ولـكنه لم يتزوجها ..

لماذا ؟ ..

لماذا لا يتزوجها ؟ ..

انه لايستطيع أن يجد جوابا .. أو هو أضعف من أن يواجه نفسه وينطق بالجواب الصحيح .. بل هو الى الآن لا يستطيع أن يعترف بأنه لن يتزوجها ، ولا يستطيع أن يقر بأنه قد يقبل الزواج بها ، انما يحاول أن يترك هذا السؤال يموت فى صدره ، ويموت على السنة الناس ، قبل أن يجيب عليه ! !

وهو لا يستطيع أن يتخذ من ماضــيها حجــة يشهرها فى وجهها ، وفى وجه المتسائلين ، لعدم زواجه بها ، فان مبــادئه العامة التى عرفت عنه ، والتى لايزال ينسبها لنفسه ، ويحاول

أن ينشرها بين قومه ، كلها مبادىء متحررة لا تحسب حسابا للماضى قدر ما تسعى للمستقبل ، ولا تقيم وزنا لجسد المرأة حتى لو تلوث ، ما دام قلبها طاهرا وما دامت روحها نقية ..

وهو يذكر انها سألته مرة : لماذا يشترط الرجال العرب ـ هكذا كانت تسميهم ـ عند اختيار زوجاتهم ان يكن عذارى ما دمن لسن بالمطلقات ولا بالأرامل ؟.. ولماذا يقيمون كل هذه الضجة وينشرون كل هذه الفضيحة ، اذا اكتشف الواحد منهم ليلة الزفاف ان زوجته ليست عذراء ؟.. ولماذا لا تزال هذه العادات الهمجية التى تجرى فى ليالى الزفاف لاعلان ان العروس قد ثبت انها عذراء ، سائدة فى بعض القرى المصرية وفى كثير من المناطق العربية ؟ ..

وأجابها :

ـ انه الدليل الوحيد الذى تثبت به العروس انها صانت نفسها وصانت أهلها ، حتى ليلة زفافها ..

قالت فى سخرية :

ـ انه دليل رخيص تستطيع كل فتاة أن تشتريه بثلاثين جنيها تدفعها لطبيب يجرى لها عملية جراحية بسيطة ليجعل منها عذراء مزيفة ! !

ـ ان كل أصل له صورة مزيفة ! !

ـ والرجل .. كيف يثبت لعروسه انه صان نفسه حتى يوم الزواج ؟!

ـ ان جسد الرجل أقل قيمة من جسد المرأة .. هى التى تحدد الأنساب وتنسب الأولاد الى أبيهم ، فهى محور الحياة الاجتماعية كلها ، ولذلك زودت الطبيعة جسد المرأة بهذا الغشاء الرقيق الذى يفصل بين العذارى والأمهات ، حتى يطمئن به

الرجل الى صحة نسب أولاده اليه ..

ـ ان الطبيب الحديث أراح الطبيعة وأراح الرجال .. فان كل امرأة سواء كانت زوجة أو لم تكن ، تستطيع أن تتحكم فى جسدها لتنجب أو لا تنجب من رجلها ! ..

***

وكانت تتكلم وهى لا تزال تعلق على شفتيها ابتسامة ساخرة .. كانت تسخر من العادات الشرقية ، ومن عقلية وتفغيل الرجال الشرقيين .. !

وقال لها فى هدوء :

ـ ان اوسكار وايلد يقول : « ان الرجل يريد ان يكون أول رجل فى حياة المرأة ، والمرأة تريد ان تكون آخر امرأة فى حياة الرجل » .. وأوسكار وايلد انجليزى وليس عربيا ولا شرقيا ، ورغم ذلك فهو يعترف بأن الرجل يريد أن يكون أول رجل فى حياة المرأة ، ولا يطمئن الى ان ترتيبه كان الأول الا اذا كانت امرأته عذراء .. أو هذا على الأقل هو الدليل المادى الذى يستطيع ان يحصل عليه .. حتى لو كان دليلا تافها ! ..

ـ ان أوسكار وايلد رجل ، ولو كان امرأة لما قال هذا الكلام !

ـ لو قرأت تاريخ أوسكار وايلد لعرفت انه كان أقرب للنساء منه للرجال .. ولكنه كان كاتبا صادقا ! !

ـ اذن فانك لن تتزوجنى .. فانى لست عذراء ، وانت لست أول رجل فى حياتى !

ـ ان العذرية تعنى الطهر والعفاف .. طهارة الروح وعفة النفس .. وقد تطهرت روحك وعفت نفسك .. فأنت عذراء حتى لو لم تكونى عذراء الجسد !

كان يتكلم وهو يؤمن بما يقول ..

ورغم ذلك لم يتزوجها ..

وحاول ان يقنع نفسه بأنه لن يتزوجهــا لأنها من بيئة غير بيئته .. فهى أجنبية وعقليتها أجنبية ، وتقاليدها أجنبية ، بل انها لا تتكلم من اللغة العربيــة الا بضع كلمات تقولها فى لهجة متكسرة مضحكة .. انها لن تستطيع أن تفهمه عندما يغار عليها وهى تراقص رجلا آخر ، ولن تشترك معه فى تفضيل «الملوخية» على « الاســبرج » ، بل انها ضحكت حتى قفزت الدموع من عينيها عندما رأته لأول مرة يرتدى « الجلابية » فى نومه ، كعادته فى شهور الصيف !

***

ولكنه كان يغالط نفسه ويحاول ان يتلمس اعذارا واهية ..

فهو يعلم ان الحب جمع بينهما فى بيئة واحدة ، وانها أصبحت منه واصبح منها .. وهو يذكر كل يوم وكل دقيقة من هذا الحب الذى ولد فى معركة انتصرت فيها المثالية على المادية ، وعاش فى دنيــا تنتشى برفيف الروح ، وترقص على دقات القلب ، ولا تنكر حق الجسد ..

انه يذكر الليلة الأولى التى التقيا فيها روحا وجسدا ، بعد أن قضيا شهورا طويلة فى حرمان قاس يقرب بين روحيهما ويفرق بين جسديهما ..

كانا جالسين متقاربين فوق أريكة عريضة يقرآن كتابا من شعر عمر الخيام ويطل عليهما ضوء خافت مريح ، بينما انغام من موسيقى « الزيجان » تنبعث من آلة الراديو ..

وكانت هذه عادتهما كل مساء .. يجتمعان فوق كتاب الى أن ينتهى الليل أو يكاد ، ثم يصحبها الى بيتها ويعود وحيدا يوقظ الفجر بخطوات قدميه ، بينما سيجارته معلقة بين شفتيه ويداه مدسوستان فى جيبى سرواله ..

ولم يكن احد منهما ينتظر ان تكون هذه الليلة بالذات ليــلة لقائهما .. لقاء جسديهما ..

كان كلاهما يعارض شعر عمر الخيام ، ويدعوه « شــاعر الاستسلام » وكانا يتفقان فى وجوب حرق كتبه حتى لا تلوث قلوب الجيل العاطفى الجديد .. وكان من عادتهما أن يقرأ شعره ساخرين منه ومن مبادئه .. ولكن السخرية فى هذه الليلة ماتت فوق شفاههما بين الصفحات ، وبدأت تقرأ فى صوت كأنه همس أوراق الشجر لنسمات الربيع ، وبدأ يستمع وكأن الالفــاظ تصل الى قلبه دون ان تمر بأذنيه .. ووجد نفسه يلتصق بها اكثر مما عودها ، ثم تسللت ذراعه لتحيط بكتفيها دون أن يجد القدرة ليقاوم نفسه او يقاوم ذراعه ..

***

وانكمشت فوق صدره كأنها قطة جمــيلة عزيزة تبحث عن الدفء .. وكانت لا تزال منحنية فوق الـكتاب تقرأ فى صوتها الهامس دون أن ترفع وجهها اليه أو تنظر فى عينيه ..

وامتدت أصابعه فى تردد تمر فوق شــعرها الأملس الغزير وتندس بين طياته ، ثم تنسحب لتطوف حول عنقها ، وتتحسس اللهب الذى بدأ ينطلق من وجنتيها ..

وذابت أشعار عمر الخيام فوق شفتيها ، ولم يعد همسها الا انفاسا تتردد حائرة لا تنتظم ولا تختل !

كان كل منهما حائرا لا يدرى الى اين ينتهى به الليل .. هل هو ليل آخر من ليالى الحرمان الطويل الذى رضيــا ان يعذبا نفسيهما به ؟ !

ومد يده الأخرى ورفع وجهها اليه ، بينما شاءت ذراعه ان تضغطها الى صدره فى رفق تمكن به الشوق حتى كاد يصبــح قسوة ! ..

ونظر الى وجهها وكأنه يراها لأول مرة .. رأى الوجنتين العاليتين كثمرتى التفاح ، ورأى الأنف الدقيق الأنيق وكأنه خلق خصيصا لاستنشاق الورد ، ورأى الحاجبين الكثيفين وكأنهما ظلال من الفحم الأسود ألقاها فنان ليبرز بها بياض بشرتها ، ورأى الشامات الثلاث التى تقوم على صفحة وجهها كأنها معالم الطريق الى شفتيها ، ورأى الشفتين اللتين ترتعشان دائما وكأنهما فى انتظار قبلة مرتقبة ..

***

ولم تخلع نظارتها السوداء كما عودته ، بل هو الذى مد يده وخلعها ليطل فى عينيها .. عينين فى لون العسل المصفى ، وصفهما عندما رآهما لأول مرة بأنهما عينا امرأة من الغجر ترتقب عودة رجلها الغائب بينما ألحان كمان بعيد تثير أدق غرائزها .. انهما اليوم ليستا عينى غجرية ، انهما عينا راهبة أقضها الحرمان ولا تزال تخشى نفسها أكثر مما تخشى الله !

وخيل اليه وهو ينظر اليها انه قبلها آلاف القبل قبل أن يلمسها بشفتيه ..

وانسدلت الجفون فوق العيون ، وغابا فى قبلة جمعت أيام العمر كله ، وتبادل كل منهما قلب الآخر بطرف لسانه ..

وعندما أمالها ومال معها ، سقط عمر الخيام من فوق ركبتها ، وخيل اليهما ان صوت الكتاب وهو يسقط على الارض ، كأنه طرقة على باب الجنة ..

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

ثم . . .

ثم اكتسى وجهها بحمرة كحمرة الشفق عند بزوغ فجر جديد ، وخبأت وجهها فى صدره لا تريد ان ترفع عينيها اليه ، وكأنها عذراء فى ليلة زفافها غلبتها النشوة حتى استحت أن تبدو آثارها على وجهها ..

كانت هذه هى نفس الفتاة التى وقفت أمامه منذ شهور طويلة عارية الا من صليب مظلوم يتعذب فوق صدرها ، ويترنح حول جيدها كأنه يحاول الفرار منها ، نفس الفتاة التى كانت تعوى كالذئبة وهى تلتهم شفتيه بأسنانها وتعصره بين ذراعيها ..

هى نفس الفتاة ، بعد أن أحبته ، وطهرت جسدها من ماضيها وآمنت بأن الحياة ليست أجسادا تلتصق ، وان الانسان ليس مجرد آلة تدور بلا ايمان وبلا هدف وبلا حب !

***

واغلقا باب الجنة وراءهما وعاشا فى نعيمها شهورا طويلة ..

لم يقلقه يوما ماضيها ..

ولم يقلقه يوما انها أجنبية وهو مصرى صميم ..

ولم يخجل منها يوما أو يحاول أن يدارى حبه لها .. كان يفخر بها ، ويزهو بحبها أمام الدنيا ، بل انه أخذ عنها كثيرا من الخصال الحميدة التى كانت تنقصه ، وهذبته حتى لم يعد ينفر من الناس .. او ينفر منه الناس ..

ورغم ذلك لم يتزوجها ..

لماذا ؟ ..

وما قيمة هذه الورقة التى يحررها مأذون لا يتعدى أجره ثلاثة جنيهات حتى يتردد أمامها كل هذا التردد ، ويأبى أن يوقعها باسمه ، ويخجل أن يصارح نفسه بأنه لن يوقعها ؟

انه لم يكن يدرى انه يتطور .. ولم يكن يدرى انه بدأ يخون مبادئه .. ولم يكن يدرى انه بدأ ينزل من سـماء المثالية التى رفعه اليها فنه ، ليعيش فى الدنيا رجلا كبقية الرجال ..

والرجال كلهم انانيون ..

والأنانية هى التى حرمته من الزواج بها ..

ان الزواج لم يكن يعنى الا ان يمنحها اسمه ، فهى لم تكن تطمع فى شىء الا أن يكون اسمه لها ولأولادها منه .. وقد بدأ يشعر ان هذا الاسم اصبح له قيمة ، واصبح له سوق يتجر به فيها ، وكان من قبل لا يشعر الا بمبادئه ، ولا يحسب ان لاسمه أو لشخصه كيانا ، الا كيان هذه المبادىء ، وهـذه المثل العليا التى كان يجاهد فى سبيلها ..

***

وقد بدأ يتطور عندما طمع احد الأحزاب فى جهـاده وفى فنه فسعى اليه ليرشحه باسم الحزب فى الانتخابات .. وقد قاوم هذا السعى ، فهو يكفر بالأحزاب كلهـا ، ويكفر بالزعماء كلهم ويؤمن انهم جميعا يمثلون طبقة واحـدة من اصحاب المصالح ورؤوس الأموال التى تستنزف دم الشعب وتستغل قوته ..

ولكنه بعد السعى الطويل والاغراء العريض ، بدأ يقنع نفسـه ، بأنه بانضمامه للحزب يستطيع ان يصلحه ويغير من اتجـاهاته السياسية ، ويستطيع ان يجمع حوله أمثاله من الشبان النظاف ليكونوا دما جديدا يسرى فى عروق الحزب ويطهره من الميكروبات التى تتزعمه وتعيش فيه ..

وكان يخدع نفسه .. وقد قبل ان يخدعها ..

وأدار وجهه ريثما يدفع له الحزب قيمة الترشيح ، ونفقـات الحملة الانتخابية ..

ثم أسبل جفنيه حتى لا يرى رجال الادارة وهم يتـدخلون لمصلحته لينجح على خصمه ، وكان يضحك على نفسه بأن هـذا التدخل ما هو الا وسيلة خاطئة لهدف صحيح .. والهدف هو أن يكون نائبا فى البرلمـان ليفعل كيت وكيت .. مما لا يستطيعه خصمه ! !

ونجح فى الانتخابات ..

وفرح الشعب بنجاحه ، فقد كان بطلا من أبطاله ، وكان يمثل التطرف الوطنى الواعى ، وكان طول حيـاته نصير كل فقير ، وعدو كل غنى ..

وبحث هو عن صدى هذه الفرحة فى قلبه فلم يجد لها أثرا ، فقد أحس ان الرجل الذى اصبح نائبا ، ليس هو الرجل الذى عرفه الشعب مجاهدا ..

واستقبل تهانى الناس بابتسامة تعبت على شـفتيه من كثرة ما فيها من بهتان ، وعندما وقف خطيبا فى ناخبيه لأول مرة بعد نجاحه ، أحس بنفسه يبحث عن اللفظ الرنان ليرضى به الآذان الساذجة ، اكثر مما يبحث عن المعانى .. فقـد بدأت المعانى السامية تتخلى عنه منذ بدأ يتخلى عن مبادئه ..

***

ودخل المجلس ..

وحاول أن يؤدى واجبه كما تصور نفسه داخل المجلس ، فلم يستطع .. !

كان عليه أن يمتثل لتعليمات حزبه فى كل مسألة من المسـائل المعروضة ، فان لم يمتثل وحاول ان يتكلم ، هب فى وجهه أغلبية الأعضاء حتى يسكتوه .. ! !

وقدم أكثر من سؤال واستجواب حول مسـائل اعتدى فيها

على الدستور وعلى مال الشعب ، فكان رئيس المجلس يستدعيه ليقنعه بسحب سؤاله أو استجوابه ، فان لم يسحبه راضيا ، أبى سعادة الرئيس أن يدرجه فى جدول الأعمال ! !

وحاول أن يفضح شركة من الشركات عاشت عالة على مصر أعواما ، فاذا بالهمسات تسعى الى أذنه ، واذا بالعروض تلقى بين يديه ، واذا بالوزير المختص يدعوه ليشرح له المصالح التى تربط الشركة بأكثر من جهة وتحول دون فضيحتها ، ثم اذا بطعن يقدم فى صحة نيابته يبدأ فى التحرك لينتهى بطرده من المجلس .. واذا به يضطر لأن يسكت ..

بل انه اكتشف ان الناخبين انفسهم لايريدون مبادئه الا ليسمعوا بها لا ليجاهدوا فى سبيلها ، انها مجرد اسطوانات ترقص عليها قلوبهم وتثير فيهم شهوة الهتاف ، فان طرد احدهم كان أهم لديهم من طرد الانجليز من مصر ، وترقية أحدهم الى الدرجة السادسة ، أهم لديهم من ترقية حال الفلاح والعامل .. الى آخر الأهداف التى ضيع شبابه مطالبا بها ..

***

وعرف بعد أسابيع قصيرة انه كى يكون عضوا فى الحزب ونائبا فى البرلمان ، ثم وزيرا — باذن الله — يجب عليه أن يتنازل عن مبادئه وعن تطرفه .. أو على الأقل يجب ان يتنازل عن لب مبادئه ، ويحتفظ باسطوانة منها كى يرقص على سماعها السذج الذين يؤلفون شعب مصر الكريم ..

وكانت مبادئه قد ضعفت ، والشعلة بدات تخمد فى صدره قبل أن يتنازل عنها ، وان لم يعترف حتى بينه وبين نفسه بهذا التنازل ..

وبدأ يستفيد من الأوضاع القائمة حوله ..

وفتحت الأبواب أمامه ، ومدت الموائد بين يديه ، بعضها برأسها وبعضها يجلس فى ذيلها ويتمسح بها ، وأصبح لاسمه ثمن كبير .. ثمن تدفعه الشركات ، ويدفعه التجار ، ويدفعه الشعب ، وتدفعه الحكومة وستحوطه الألقاب يوما ما ..

ولكن هذه الفتاة الطيبة الكريمة التى أحبته ، والتى احبها صادقا ، خلال أربع سنوات كان فيها نظيفا نقيا طاهر القلب والعقل .. ماذا تستطيع أن تدفع ثمنا لاسمه ؟ !

لقد دفعت له ثمن حبه أياما أسعدته بها ..

ولكن اسمه ! ! ان ثمنه لا تستطيع دفعه — بعد أن تلوث — الا ابنة وزير ، أو ابنة كبير .. وقد أصبح يلتقى ببنات الوزراء والكبراء ، وأصبحت كل منهن تطمع فى اسمه .. هذا الاسم الذى أصبح يمثل فى المجتمع الراقى شبابا وسيما ناجحا ذا مركز ممتاز .. والمجتمع الراقى ليس من عادته أن يبحث عن حقيقة المبادىء التى تختفى وراء الوسامة والنجاح والمركز الممتاز ، ولم يتعود أن يراجع هذه المبادىء بين الحين والحين ليتأكد انها لم تتعرض لتبديل أو لفتور ..

***

وامتلأت أيامه بحياته الجديدة .. كان دائما فى اجتماع مجلس ادارة احدى الشركات ، أو اجتماع لجنة برلمانية ، أو فى الجلسة ، أو فى مقابلة وزير أو فى حفلة من حفلات الشاى أو الحفلات الساهرة ، ولم تعد أيامه تتسع للفتاة التى تحبه .. لم يعودا يقرآن سويا فى كتاب ، أو يستمعان الى لحن من الحان بتهوفن أو شوبان ، أو يتناقشان حول مبدأ أو فكرة ، أو يقص عليها قصة يوم من أيامه ..

كان لقاؤهما دائما قصيرا سريعا ..

لقاء لا يكفى ليجمع بين روحيهما ، وقلبيهما ، وعقليهما .. وان كان يكفى ليجمع بين جسديهما ! !

لقد أصبح رجلا آخر .. أصبح حيوانا .. أصبح آلة تدور بلا وعى وبلا هدف ، أصبح كما كانت هى عندما التقى بها منذ أربع سنوات .. قبل أن تشفى ، وقبل أن ترتفع عن مرتبة الحيوان الى مرتبة الروح والقلب والذهن ..

أصبح يلتقى بها ويضمها بين ذراعيه وهو يلقى عليها بتحية اللقاء ، ثم يقع بشفتيه فوق شفتيها ويفتش بينهما حتى تصطك اسنانه بأسنانها ، ويعصرها فى صدره حتى تلتهب أعصابه فيمد يدين مجنونتين ليخلع عنها ثوبها .. ثم ينهش فيها ككلب مسعور .. بينما تستسلم له مشفقة عليه ، كارهة له ، والصليب يهتز حول عنقها فى تمرد وكأنه يحاول أن يصفعه ..

حتى اذا هدأ فوق صدرها .. التقط سترته ، وتمتم ببعض الفاظ لا يختار لها معنى ، ثم ينطلق ليلحق باحدى اجتماعاته قبل أن يفوته موعدها ، أو ليلتقى بابنة وزير أو كبير طمعت فى شبابه الوسيم ومركزه الممتاز واسمه العريض ..

هكذا أصبح ..

وقد حاولت أن تعالجه كما عالجها ، ولكنه استعصى عليها ، واستعصت عليها نفسها أن تتطور معه ..

***

وكان يرفض أن يناقشها أو يستمع الى نقاشها ... قالت له يوما :

ـ لقد تبدلت .. انك انسان آخر ..

ـ تقصدين انى نجحت ..

ـ انك فشلت .. انك انسان لا أعرفه ..

ـ انك لا تعرفيننى الا فقيرا ، مضطهدا ، متعبا .. ولا تريدين أن تعرفينى نائبا ناجحا ، واسما عريضا ، ومركزا ممتازا ..

ـ لقد دفعت الثمن من مبادئك وروحك ، وضميرك ..

ـ اخرسى .. ان الشعب يهتف لى اليوم كما لم يهتف من قبل ! ..

ـ سيصفعك الشعب غدا ، عندما تنكشف له ..

ـ أين أنت من الشعب .. انك أجنبية .. حماية فرنسية !

ـ انت الذى جعلتنى من الشعب .. انت .. هل نسيت لياليك الطويلة وانت تحدثنى عن شعبك حتى أحببته كما أحببتك !

ـ انك لم تؤمنى بالشعب الا عندما ضاعت ثروة أبيك واحسست بالفقر ، فأحببت الفقراء ..

ـ وانت كفرت بالشعب وبدأت تخدعه ، عندما اصبحت من الأغنياء ! ..

ـ انى نائب من نواب الشعب ، والشعب هو الذى يدفع لى

ـ انك نائب من نواب الحكومة ، والحكومة هى التى تدفع لك

ـ انها حكومة الشعب ..

ـ انها سوط على الشعب فى يد الأسياد ! !

ـ أنا الذى علمتك قول هذا الكلام .. الحق على !

وغادرها ولم يعد ..

***

لقد كان كل منهما يقف فى أحد طرفى الطريق ، ثم التقيا فى منتصفه ليسير كل منهما الى الطرف الآخر من الطريق ..

كان فقيرا وكانت غنية ، فأصبح غنيا وأصبحت فقيرة أو تكاد ..

وكان مثاليا وكانت مادية ، فأصبح ماديا ، وأصبحت مثالية..

وكان يؤمن بالروح وكانت تؤمن بالجسد ، فأصبح يؤمن بالجسد وأصبحت تؤمن بالروح ..

وكان يعيش لمبادئه ، وكانت تعيش بلا مبادىء ، فأصبح يعيش بلا مبادىء ، وأصبحت تعيش لمبادئها ..

ولم يعد أحدهما يطيق أن يعيش مع الآخر .. كان يرى فيها صورة لشبابه الطاهر ، ولكفاحه الشريف .. الصورة التى يخشاها ويريد أن يتناساها ويتناسى معها الماضى كله حتى لايزعج بها ضميره الذى خدره حتى نام عن حاضره ..

واصبحت ترى فيه صورتها يوم كانت تعيش حيوانا شره الحس ، بارد الاحساس ، جاف العاطفة ، يدور كالآلة الصماء فى ضجيج يطغى على صوت الله ، وأصوات الملائكة ، وأصوات البشر .. الصورة التى أحرقتها وتأبى مجرد تصفحها ..

انها اليوم تعيش فى عزلة .. سعيدة ، هادئة ، راضية الضمير ، تمتع قلبها وذهنها بجمال كل ما ينتجه الانسان الفنان .. وقد ترونها يوما ، فتاة فى نضرة الورد ، تركب سيارة كبيرة قديمة حمراء من آثار عز قديم ، تحملها فى صباح كل يوم الى الكنيسة لتقف أمام الجسد المصلوب ترتل صلواتها الخافتة ، بينما روح القدس تبارك السماء والارض من حولها ..

شىء واحد تغير فيها .. فان نظارتها لم تعد سوداء .. انها نظارة بيضاء .. فقد أصبحت تعيش فى النور بعد ان خرجت من الظلام ..

وعندما ترونها ، احنوا الرؤوس .. فهى أطيب قلب يضمه صدر فتاة ..

***

اما هو ..

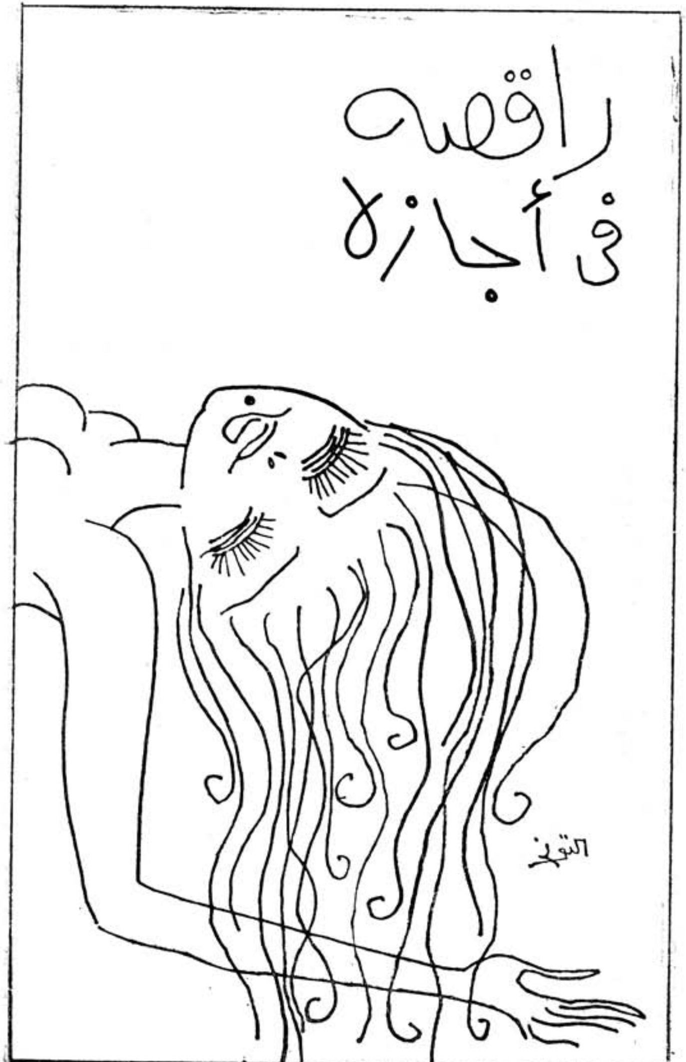
انه يبيع أيامه فى سبيل مجد زائل مزيف مفشوش .. ويدور

كالثور المعلق فى ساقية .. يبتسم فلا يحس الا بأن شفتيه قد انفرجتا ، ويشرب فلا يحس الا بما يعقب الشراب من صداع فى آخر الليل ، ويأكل فلا يحس الا بالاشياء تتساقط فى معدته ، ويصطحب فتاة فلا يحس الا بجسد أملس يلتصق به ..

وقد تسمعون عنه قريبا انه أصبح زوجا لابنة وزير أو كبير ، ثم قد تسمعون عنه انه أصبح وزيرا أو كبيرا ، فلا تحسدوه .. انه حيوان بائس تعيس .. !

وعندما يخلو بنفسه فى بيته الأنيق الذى تتناثر فيه التحف كأنها شواهد تقوم فوق قبور أباطرة الرومان ، ويجلس فى مقعده الوثير أمام المدفأة الفخمة ثم يبرق ذهنه أو يتحرك ضميره يداوى نفسه فيخاطبها بمنطقه الجديد :

« هذه المبادىء .. وهذه المثل العليا .. هل وضعت لتكون نظما مقررة ، ترتب حياة كل انسان وتحدد تصرفاته وتحكم قلبه وعقله ؟ لا .. انها وضعت لاستعمالها وقت الحاجة فقط ، فان لم نحتج اليها فلا نؤمن بها ولا نستعملها .. انها العصا التى يستند اليها الضعيف ، أما القوى فليس فى حاجة الى عصا ليستند عليها .. انه يقف على قدميه متحديا ، بلا مبادىء وبلا مثل عليا » ! ! ..


راقصة
فى أجازة

« كتبت هذه القصة فى جزيرة كابرى .. خلال أيام تعيسة قضيتها هناك وأنا شبه سجين !

وكانت تقف بجانبى عندما أكتب ، ثم تستمع الى ما أكتبه بعد أن اترجمه لها فتهز كتفيها وتقول بلا مبالاة : « وماذا يهم ما دام قراؤك لا يعرفون من أنا .. وما دمت ستكسب بعض المال من وراء قصتى » !

ولكنها كانت أحيانا تثور وتصرخ : « هذا كذب ! » ثم تمد اظافرها وتحاول أن تمزق الورق ..

***

وكنت انقذ الورق من بين اظافرها ، واضطر احيانا ان الوى ذراعها خلف ظهرها حتى تهدأ ثورتها ، فكانت تصرخ : « ماذا تريد منى .. هل تريدنى أن ابكى .. تذكر انى المانية ، ولن ابكى أبدا .. ولن ابكى من اجلك أنت بالذات » !

ولم تبك ابدا .. لقد قابلتها مرفوعة الرأس موفورة الثقة بنفسها ، وتركتها وهى تخطو نحو الباخرة فى خطوات قوية كأنها خطوات الاوزة ..

انها لم تبك ، ولن تبكى .. لأنها امرأة تعلمت كيف تقسو على نفسها ! ..

« احسان »



١

كان يمكن أن تبدأ القصة فى القاهرة ، فقد رآها لأول مرة ترقص فى أحد ملاهيها الراقية ..

وقد تعمد أن يراها مرة ثانية وثالثة ثم عشرات المرات .. ولكنه كان يكتفى منها بالنظر .. فيجلس بعيدا يرقب ابتسامتها الطيبة الساذجة التى تعلقها على جانب من شفتيها ووجهها الصغير النحيل وهو يطل من بين خصلات شعرها الاشقر الذى ينسدل فوق كتفيها بلا نظام كأنه شلال من ذهب ، وجسدها الضئيل الذى يتلاعب به زميلها الراقص كأنه سلسلة مفاتيح يطوحها بأطراف أصابعه ..

انها راقصة .. ولكنه كان يراها كطالبة فى احدى مدارس البنات الاجنبية ، وكان يرتفع بها — فى مخيلته — عن بيئة الراقصات ، بل كان يخيل اليه انها ارق واضعف من أن يقربها رجل ، انما يكفى أن ينظر اليها الرجال ، ويعبدوها ، أو على الاقل يعجبوا بها .. !

ورغم ذلك ، لم يحاول أن يتقرب اليها ، أو يقدم لها نفسه ، مع ان الأمر لم يكن يكلفه اكثر من ان يصفق للجرسون ويطلب

منه زجاجة شمبانيا ، ويطلبها مع الزجاجة ، بنفس البساطة التى يطلب بها طبق فول سودانى ..

لم يتقرب اليها لأنه كان يخشاها ، وهو يخشى جميع الراقصات حتى من تبدو منهن بريئة ساذجة ، ويعلم جيدا كم يكلف الاعجاب بهن ، وكم يكلفه هو بالذات من وقته وسمعته وماله على حساب عمله الذى يفنى فيه ..

***

وعرف أصدقاؤه تهافته عليها وحاولوا اكثر من مرة أن يجمعوه بها على مائدة واحدة ، ولكنه كان يرفض ويصر على الرفض ثم يقف بعيدا يرقبها ، ويرقب ابتسامتها وهى توزعها على كل الناس دون أن يكون له نصيب منها ..

وسلطوها عليه يوما ما ، فجاءت ووقفت بجانبه على حافة « البار » ونظرت فى عينيه ، فارتبك وادار لها ظهره وحاول أن يشغل نفسه عنها بكأسه ، ولكنه كان يحس بعينيها لا تزالان مصـــوبتين اليه ، تحرقان قفاه ، ثم احس بكتفها تلامس كتفه وتلح فى ملامسته ، فالتفت اليها وهو يحاول أن يبدو غاضبا ، ولكنه اصطدم بابتسامتها الطيبة الساذجة التى تعلقها على جانب من شفتيها فتهاوى .. وهو دائما يتهاوى كلما رأى شيئا طيبا ساذجا ، ووقف امامها لا ينظر اليها ولا يتكلم ، يحاول ان يبدأ فلا يعرف من اين ! ويحاول أن ينتهى فلا يعرف الى أين !

واتسعت ابتسامتها حتى وصلت الى الجانب الآخر من شفتيها ثم قالت فى لغة انجليزية تشوبها لكنة المانية :

— لقد قيل لى انك تحبنى ؟

وكان يعلم انها مهما قالت فلن تقول أكثر من مداعبات ترضى بها اصدقاءه الذين سلطوها عليه ، ورغم ذلك فقد أحس ان

الموقف لا يحتمل المداعبة ، وان هناك فى اعماق قلبه شيئا يجب ان يحترمه ، ويجب أن تحترمه هذه الفتاة ، ويجب ان يحترمه اصدقاؤه ..

واجاب فى صوت خافت رزين :

ـ ان الحب كلمة كبيرة .. لنكتف الآن بالقول انى معجب بك .. !

ـ ولماذا حرمتنى من البوح بالاعجاب .. انه من حقى ، ومن حقى أن ارضى به غرورى !

قالتها فى صراحة وابتسامتها تتلاعب على شفتيها حتى قفزت الى عينيها .. واجابها بنفس الصوت الرزين ، وكأنه يناقش نظرية اقتصادية عويصة :

ـ هناك أسباب ثلاثة تمنعنى من ان ابوح لك باعجابى : اولا ، ان اعجابى بك يكلفنى كثيرا من زجاجات الشمبانيا وانا رجل فقير قد اتحمل ثمن زجاجة ، ولكنى لا أتحمل ثمن الثانية .. ثانيا ، أنا رجل مشغول اكدح فى سبيل مبدأ أؤمن به وفى سبيل رزقى ، ووقتى لا يسمح لى باشباع اعجابى بك ، ولن استطيع أن انتظرك هنا حتى الساعة الرابعة صباح كل يوم حين تنتهين من عملك ، لأقول لك كم أنا معجب بك . أما ثالثا فانى اخشى أن ينقلب هذا الاعجاب الى حب ، وأنا اخاف الحب ، ولا اريد أن أحبك انت بالذات !

***

وكان يتكلم وهو ينظر الى كأسه وكأنه يقرأ فيه نبضات قلبه ، وعندما انتهى ، رفع اليها عينيه ، فوجدها تدور بعينيها فى ارجاء وجهه وكأنها تراه لأول مرة ، واذا بابتسامتها تذوب فوق شفتيها حتى تختفى ، وترتفع مكانها آهة صامتة .. قد تكون آهة

اعجاب ، أو آهة شفقة ، أو آهة رثاء ، ثم اذا بها تدس أصابعها فى خصلات شعره تعبث بها فى حنان عجيب وتتكلم وفى عينيها ضوء خافت كضوء مصباح أزرق بجانب فراش النوم .. وقالت :

ـ انى أستطيع أن اتغلب على السببين الأولين ، انى اقبلك فقيرا ، واكتفى منك بما يتركه لك عملك من فراغ .. ولكن لا تكن جبانا ، وحاول أن تجد فى نفسك الشجاعة لتحبنى !

***

ولم يتكلم فقد رآها فى هذه اللحظة كما لم يرها من قبل ، وأحس انها لم تعد هذه الطفلة الصغيرة التى أعجب بها كل هذه الأسابيع ، وارتفع بها عن بيئة الراقصات .. أحس ان هذا الجسد الضئيل يضم شراهة ذئبة ، واحس ان هذه الابتسامة الطيبة الساذجة تخفى وراءها أسنانا جائعة ، واحس أن شلال الذهب الذى ينسدل على كتفيها يكاد يشتعل نارا يطل وجهها النحيل الاصفر من خلال ألسنتها .. ثم احس بنفسه يتضاءل امامها حتى كاد يرتمى على صدرها ويبكى مرتعدا كطفل ضائع

وقد يكون مخطئا فيما أحسه ولكنه كان ينتظر منها غير ما لقى .. كان ينتظر منها أن تحمر وجنتاها خجلا عندما تسمع كلمة من كلمات الاعجاب أو الغزل ، وكان ينتظر ان ترتبك وأن تتلعثم وتحتار ابتسامتها عندما تقف قبالته ، ولم يكن ينتظر ان تقبل عليه بمثل هذه السهولة المبتذلة .. كان يريدها أن تترفع وأن تتمنع وأن تصد اعجابه بها ، وان تتعب قلبه حتى يلهث وراءها .. هكذا صور له خياله .. وقد صدم عندما اكتشف انها لم تكن سوى راقصة من الراقصات !

وطال بينهما الصمت وكانت خلاله تدس أصابعها الصغيرة الرقيقة فى خصلات شعره وتدغدغ راسه وكأنها تريد ان تنشب

اظافرها فى مخه لتفقده الوعى ، وكان هو مرتبكا خجلا يخيل اليه أن العيون كلها قد التفت حولهما فى وقفتهما

وجاء الجرسون وهمس فى أذنها وابتعد ، فقالت وهى تسحب اصابعها من خصلات شعره :

– انتظرنى ..

قالتها بصوت امرأة تستأذن رجلها بضع دقائق ريثما تخلع ثيابها ، ثم اتجهت الى حيث كانت تنتظرها زجاجة شمبانيا ترقد فى قبر من الثلج ملتفة بكفن ابيض !

***

ولم ينتظرها ..

فقد عود قلبه أن يقاوم .. وكان يسمى شعور الاعجاب هذا الذى يحس به نحو بعض النساء « طرقات على القلب ، عله ينفتح ».. ولم يكن يسمح لقلبه أن ينفتح ، خصوصا للراقصات ، وكان يستعين عليهن بحبه لعمله وحرصه على وقته وراحة اعصابه ، وكل هذا كان كفيلا بأن يضيع منه بين أحضان راقصة ! ..

لم ينتظر .. وخرج من الباب وقد ترك وراءه فى الملهى حلما تحطم ، وليلة غرام لم تتم .. وبين ضلوعه قلب يأسف لعناد صاحبه ..

ولم يعد الى الملهى ثانية .. ولم يرها بعد هذه المرة .. بل لم يسمع باسمها ..

وكان هذا هو كل ما شهدته القاهرة منهما .. فصلا واحدا لا يصلح كى يكون قصة ، ولا مقدمة قصة !

***

ومرت شهور ، سافر بعدها الى ايطاليا ، واستقر أياما فى جزيرة كابرى ..

وقد احب دائما كابرى .. احب كل حجر فيها ، واحب شوارعها الضيقة العتيقة التى تنتقل بك الى عصر القراصنة عندما كانوا يلجأون الى جزائر مجهولة ساحرة يدفنون فيها كنوزهم وينشدون فى لياليها اناشيد الخمر والنساء

وكان قد تعود أن يحس هناك بالحرية المطلقة .. وهى ليست حرية سياسية ، ولا حرية الايمان ، ولكنها حرية اطلاق النفس من وراء قضبان المجتمع ، وفك العقد النفسية المتراكمة التى يكونها الادعاء والرياء والنفاق الذى يفرضه عليك الناس أو تفرضه على نفسك .. انك هناك تستطيع أن تبدو كما تشاء ولن يقول عنك أحد انك مجنون ، ولن يقول أحد انك عاقل ، فليس هناك من يهتم بشأن الآخرين ، ولن تفيق من نشوتك الا لحظات سريعة عندما تسمع أجراس الكنيسة تدق فى قسوة حتى لتكاد تخلع الجزيرة الصغيرة من جذورها ، لتذكرك بأن الله موجود .. حتى فى كابرى !

***

ولكنه فى هذه المرة لم يجد فى كابرى ما تعود أن يجده من راحة النفس واطلاقها على سجاياها ، أو هو لم يجد نفسه يصلح لكابرى ولا لقومها .. فقد امتدت الايدى التى تحاول أن تخنق مبادئه وتصد كفاحه لتلاحقه هناك ، واحس بنفسه مضطهدا مظلوما ، وحاول أن ينسى فلم يستطع ، وحاول أن يستريح من ذكريات ما فات من كفاحه وما ينتظره من وراء هذا الكفاح فلم يستطع ، فقد كانت أعصابه تلح عليه أن ينتقم وأن يقاوم ، وكان الحقد على أعدائه السياسيين يصور أمام عينيه صورا سوداء تقبض صدره وتضغط كالكابوس على قلبه ..

ومضى يومان قضاهما فى الجزيرة وحيدا لايحادث احدا ولا

يحرك لسانه الا ليسأل الجرسون « كونتو » اى « الحساب » .. وكان يذهب كل صباح الى « بيكولو مارينا » ـ أى البحر الصغير ـ ليستلقى على مقعد من مقاعد كازينو « كونسرمو دلمار » اى اغنية البحر ـ ويترك جسده للشمس علها تستطيع أن تذيب ثورته ، وتفتت أعصابه المتوترة ، ثم كان يرفع عينيه بين الحين والحين ليرى من حوله الطبقة الارستقراطية العالمية تضمها اجساد عارية مبتذلة ، فيحاول ان يبتسم سخرية أو امتعاضا ، فاذا ابتسامته تفيض بالدموع !

وكان يقضى على مقعده هذا ، النهار كله ، يقوم ولا يقعد ، فاذا ما انتهى النهار سحب نفسه ليجلس على مقعد آخر فى الميدان الصغير الذى يتوسط الجزيرة ، والذى لا يزيد فى مساحته عن صالة الطعام فى منزل النحاس باشا !

وكان يجلس هناك حتى الساعات الاولى من الفجر ينظر ولا يرى ، ويسمع ولا يعى .. وتمر به الحسان فى ثيابهن المجنونة كأشباح داكنة ، وتصل اليه الانغام مختلطة بالضحكات الملحنة كأصداء بعيدة من عالم لا يعيش فيه ..

***

وكان فى جلسته هذه عندما أحس ان هناك شيئا يقف قبالته وينظر اليه ، فرفع عينيه التائهتين ليراها أمامه ..

انها الابتسامة الساذجة الطيبة المعلقة على جانب من الشفتين ..

وهى الوجه الصغير النحيل الذى يطل من بين طيات شلال الذهب ..

وهى الجسد الضئيل الذى يطوحه صاحبه كما يطوح سلسلة المفاتيح بين أصابعه ..

ولم يصدق عينيه ، فقد كانت آخر من ينتظر أن يلقاه فى

كابرى .. فليس فى الجزيرة راقصات ولا كاباريهات ، وهى لا تكون الا حيث تكون الراقصات والكاباريهات ..

وصاح فى صوت مبحوح .. يحشرجه صمته الطويل الذى عاش فيه :

ـ تشارلى ..

وكان هذا هو اسمها ..

وقالت وابتسامتها تتدلى على جانب من شفتيها :

ـ اخيرا .. لقد خيل الى انك تحولت الى تمثال من الشمع .. فقد انتظرتك عشر دقائق حتى ترفع عينيك الى .. ماذا بك ؟ ولماذا تركتها وجئت الى هنا ؟

ـ تركت من ؟

ـ هذه الفتاة التى حولتك الى تمثال من الشمع

ـ ليس هناك فتاة .. انما هى الوحدة !

ـ اذن ، لن ادعك وحيدا !

قالتها كأنها صديقة قديمة مسئولة عن سعادته ، فأشار الى مقعد بجانبه قائلا :

ـ تعال اجلسى ..

ـ بل قم .. تحرك ..

***

وجذبته من يده ، وسارت تجره وراءها فى خطوات سريعة ، وتقف أمام كل حانوت لتصرخ فرحة لشىء تراه ، ثم تدخل الى مقهى لتشترى « أيس كريم » فى قرطاس من البسكويت تلعقه بلسانها وهى سائرة فى الطريق ، ثم تصطدم بعازف الجيتار فتطلب منه لحنا تغنيه معه ، ثم توقف سائحة امريكية لتسألها من اين اشترت هذا الثوب الانيق .. وكانت تقفز وتضحك

وترقص وتتكلم .. كانت تتكلم كثيرا ، وتتكلم بخمس لغات ، وتتكلم بها جميعا كلاما فارغا تافها لا يكلفك أن ترد عليه بل يكفى أن تضحك منه ..

واحس بالحياة تدب فى أوصاله ، وبدأ يرى كابرى كما تعود أن يراها .. كانت حيوية هذه الشابة المرحة أقوى من همومه واقوى من مشاكله ، فاندفع معها يقفز ويضحك ويرقص ويلعق « الآيس كريم » بلسانه فى الشارع ، ويتكلم كلاما فارغا تافها

وجذبته من يده مرة ثانية قائلة : تعـال .. لتتعرف على عائلتى .. ووقفت به أمام ثلاثة :

أحدهم اخوها ـ غير الشقيق ـ « هانز » وهو زميلهـا فى الرقص .. شاب سويدى مفتول العضل ، ممشوق القوام ، صارم التقاطيع .. لا يتكلم الا نادرا ، واذا تكلم فليقذف اخته بكلمة لاذعة جارحة ..

***

والثانى « جان » شاب فرنسى جميل ، فى جماله أنوثة وفى ابتسامته خلاعة النساء ، وفى مشيته وتصرفاته رشاقة فتـاة مفتونة .. وهو أحد مديرى الفرقة الراقصة التى تضم تشارلى وأخاها هانز ، وتستطيع أن تلمح سريعا أن جان معجب بهانز ، وان هذا الاعجاب يتخذ صورا شاذة ليست منمقتضيات الاعجاب بين رجل ورجل !

***

أما الثالثة فهى « العمة لوتى » .. امراة عجوز فى الستين من عمرها تدب على الارض فى قوة ابنة الثلاثين وتتكلم فى صوت حاد منفر النبرات ، وتنتقد دائما ، وتعترض دائما ، وتتأفف دائما.. وقد بدات حياتها راقصة تطوف العالم مع الفرق الاستعراضية ،

ثم لما اعتزلت الرقص ، ظلت تطوف العالم مع الفرق الاستعر لا كراقصة ولكن كمساعدة للراقصات .. تحوك ثوبا ، أو تعد طعاما ، أو تحسب حسابا وفى الوقت نفسه تراسل بضع صحف سويدية بتحقيقات عن البلاد التى تطوف بها

وابتسم وهو يرى نفسه بين هذا الخليط من الناس .. ان كلا منهم يختلف عن الآخر فى جنسيته ، فالفتاة « تشارلى » تحمل جواز سفر المانيا مؤشرا عليه باقامة دائمة فى اسبانيا ، وليس من حقها أن تدخل أى دولة من دول العالم ريثما توقع معاهدة الصلح بين هذه الدول وبين المانيا ، الا اذا دخلت فى صحبة فرقة راقصة تحمل عقدا بالعمل .. وأخوها « هانز » يحمل جواز سفر سويديا تبعا لجنسية والده ، وجان يحمل جواز سـفر فرنسيا ، والعمة لوتى تحمل جواز سفر سويسريا اكتسبته بزواجها من احد السويسريين منذ ثلاثين عاما

***

شىء واحد كان يجمعهم ، وهو انهم جميعا مشردون فى الارض ليس لواحد بيت ولا عائلة فى أى بقعة من العالم ، انما يقضون حياتهم فى البواخر وقطارات السكة الحديد والفنادق ينتقلون من بلد الى بلد يرقصون على الانغام ، وتصفو قلوبهم أحيـانا فتمتلىء بالحب والفن والحياة ، وتقسو أحيانا فيحقدون على العالم الذى شردهم ، ويحقدون على القدر الذى يأبى أن يريح أقدامهم من الرقص والتنقل ، ثم يحقدون على الناس فينتقمون فيهم من العالم ومن القدر.. وهو دائما انتقام ناعم الملمس ضعيف الأثر كلدغات النحل !

وكان هناك امل واحد يلفهم جميعا .. وهو أن يكون لهم بيت يملكونه ويستقرون فيه ، ويكون لهم مطبخ يطهون فيه طعامهم

بأيديهم وكما يروق لهم ، ويكون له حديقة صغيرة يتنسمون فيها هواء لهم وحدهم لايشاركهم فيه أحد ، ولا تلوثه مداخن القطارات والبواخر ، ولا أبخرة الخمر ورائحة الدخان التى تزدحم بها أبهاء الفنادق والملاهى ..

***

وكانوا عندما يجلسون بعضهم الى بعض فى جلسة هادئة لا يتحدثون الا عن هذا البيت .. وقد اختاروا له مكانا على شاطىء الكوت دازير فى فرنسا ، وارسل جان الى احد السماسرة ليختار له الارض ويساوم على ثمنها .. وتستطيع تشارلى عندما تتحدث ان تصف لك هذا البيت الموهوم وصفا دقيقا ، حتى لون الستائر ومواضع الأثاث ، وادوات المطبخ قد اختارتها بخيالها ، ولم يبق عليهم الا ان يحصلوا على المال الذى يدفعون منه الثمن ، وهم لهذا يقترون على أنفسهم حتى فى طعامهم ليدخروا ثمن الحلم الجميل الذى يعيشون فيه وله ..

كانت هذه هى العائلة التى قدمته اليها تشارلى ، وقد كانوا جميعا يعملون فى ملهى « دولاروزيه » بروما ، ثم انتهى عقدهم ، وبقى على مدة اقامتهم فى ابطاليا بضعة أيام قرروا ان يقضوها فى كابرى فى فندق فقير على ساحل « جراند مارينا » ــ اى البحر الكبير ــ واعتبروا انفسهم فى اجازة .. وهى أول اجازة يمنحونها لأنفسهم منذ خمس سنوات ..

***

وقد أحب افراد هذه العائلة .. أحبهم فى مرحهم وفى اخلاقهم المتباينة وفى تحررهم من كل تقليد .. أو انه لم يحبهم ، انما وجد فيهم ما يلهيه عن أفكاره السوداء وهمومه التى جاءت وراءه من القاهرة ..

ودعاهم ليلتها ليقضوا الليل فى فندق « تشزرى اغسطس » افخم فنادق الجزيرة واشدها ارستقراطية .. ولكن تشارلى وعائلتها لا يعترفون بالفخامة الارستقراطية ، فما كادوا يصلون الى هناك حتى ملأوا المكان رقصا وضحكا وحياة ، وتحركت الدماء الباردة فى عروق اللوردات الانجليز وأصحاب الملايين الأمريكيين فاذا بهم ينزلون الى حلبة الرقص ويسلمون قيادهم للفتاة تحركهم كيف تشاء ، وتقودهم وراء جسدها الضئيل فى رقصة السامبا ..

ثم انتقلوا الى فندق « الكويزيسانا » حيث يجتمع فتيات كابرى وشبانها فى سراويل تلتصق على اجسادهن وأجسادهم فتبرز تفاصيل وثنيات تستحى منها عين من لا يزال يؤمن بفضيلة الحياء ، ويرقصون هناك الشارلستون والبولكا وهما الرقصتان اللتان تؤمن بهما كابرى هذا العام

وحتى بين الشبان والشابات وجدت تشارلى مكانا لها ، وافسحت طريقها بابتسامتها الساذجة التى تعلقها على جانب من شفتيها حتى وصلت الى مكان الفرقة العازفة لتغنى تارة بالانجليزية وتارة بالفرنسية أو الالمانية ، فيلتف حولها الراقصون والراقصات يلتقطون الانغام من بين شفتيها ويترجمونها الى قبلات !!

ثم انتقلوا الى « نمرة ٢ » وهى حانة عجيبة تحت الارض زبائنها كلهم من صاحبات الملايين العجائز ، والشبان الذين يبيعون دماءهم للعجائز بالثمن ، والكلاب التى تستعيض بها العجائز عن حنان الابن والزوج والعشيق ..

***

وهناك هدأت تشارلى وطلبت كوبا من اللبن الساخن ــ شيء

أبيض نظيف ، تفسل به سواد الليل ومجونه ـ والتفتت اليه وهى ترشف كوبها لتسأله :

ـ الا تزال وحيدا ؟!

وأجاب وهو لا يكاد يقوى على رفع جفنيه :

ـ لقد كنت وحيدا عابسا ، فأصبحت وحيدا ضاحكا !

ـ الا تفضل أن تكون وحيدا ضاحكا ؟

ـ نعم ..

ـ والفضل لى ..

ـ هذا صحيح ..

ـ اذن فسأبقى معك .. أليس كذلك ؟!

ـ أرجو ..

ـ لا ترجو ، فانى أريد أن أبقى معك !

ومضت ثلاثة أيام ..

كان دائما معهم حتى اصبح واحدا منهم .. وكانوا يتجهون فى الصباح الى « المغارة الزرقاء » ليسبحوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم أو الى « البيكولو مارينا » ليسبحوا فى حوض السباحة الذى اقامته المغنية الانجليزية جريس مور وأحاطته ببناء أنيق أطلقت عليه اسم « أنشودة البحر » .. وفى المساء كانوا يطوفون بملاهى كابرى وحاناتها يرقصون ويضحكون ويعبثون حتىالساعة الرابعة صباحا ..

***

ولكن هل هذا هو كل شىء ؟!

انه لم يكن شيئا حتى هذه اللحظة الا مغفلا كبيرا ، فقد كان هو الذى يدفع دائما ، ويدفع للعائلة كلها بما فيها العمة «لوتى»

التى تستطيع ان تشرب زجاجة ويسكى كاملة ثم تكتشف انها لا تحب الويسكى !

وقد عرف أهل الجزيرة كلهم انه يقوم بدور « المغفل » لهذه العائلة ، واعتقدوا انه يحب هذه الفتاة الشقراء ضئيلة الجسم نحيلة الوجه ، التى تعلق ابتسامتها على جانب شفتيها ، والتى ترقص دائما وفى كل مكان ..

وهو لا يهمه أن يكون مغفلا بل انه يجد فى التغفيل راحة من عناء الكبت الذى يعانيه فى القاهرة ، وراحة من ذكائه الذى يكدحه فى خلال الشهور التى يعمل فيها

ولكن هل هو يحب هذه الفتاة ؟!

ولكن هل هى تحبه ؟!



٢

ان قصتها معه لم تبدأ بعد ..

وقد بدأت عندما التقى فى صالة الطعام بالفندق الذى يقيم فيه ـ « باجانو فيتوريا » ـ بآنسة أمريكية فى حوالى الثلاثين من عمرها ..

كانت تجلس وحيدة على المائدة المجاورة .. وتبادلا الابتسام كما يحدث عادة بين نزلاء الفندق الواحد ، ثم تبادلا الحديث ثم انتقل الى مائدتها ، ثم دعاها الى قضاء اليوم معه فى كازينو « اغنية البحر » ..

لم تكن جميلة ، ولكنها كانت أنيقة ، وكان اهم ما فيها انها أمريكية ، وللأمريكيات سحر خاص فى نظر طلاب المغامرات . سحر يرسمه الدولار وترسمه افلام هوليوود .. ولا تجد مصريا يذهب الىأوروبا الا وهو يتمنى أن يعود وعلى طرف لسانه مغامرة مع فتاة أمريكية ، يرضى بها غروره ويتفاخر بها فى منتديات القاهرة ..

وكانت على النقيض من الراقصة تشارلى .. كانت متحفظة هادئة ، تخلق فى كل لحظة موضوعا يفتح بابا واسعا للمناقشة ، وهى تفضل دائما المناقشات السياسية او المناقشات التى تدور حول علم النفس ونظريات فرويد ويونج

وقد عرف انها تعمل مساعدة طبيب فى مدينة نيويورك ، وكان يبدو انها قرأت كثيرا ، وانها حادة الذكاء ، كما كان يبدو انها يهودية ، وقد تأكد له انها يهودية عندما تناقشا فيما بعد حول قضية فلسطين !

***

وعرف انها تطوف بأوروبا لأول مرة ، وانها لم تجد فى طوافها ما كانت تنتظره ، فقد زارت جميع الكنائس ، وجميع الاماكن التاريخية ، وطافت بالجبال والوديان وبالمطاعم والحوانيت العالمية، ولكنها كانت دائما وحيدة .. لا تتحدث الا حديثاعابرا ، ولا تلتقى الا بأناس عابرين .. وهى تريد رجلا بجانبها يشاركها الاعجاب بما تراه ، وتستند الى ذراعه عندما تقف على قمة الجبل ساعة الغروب ، وتلتصق بصدره عندما تسمع لحنا حنونا راقصا ، ثم تغفو لتنام وصورته معلقة تحت أجفانها ..

وقالت له وهما فى طريقهما الى الميدان الصغير ليستقلا سيارة تحملهما الى الشاطىء :

ـ لقد رأيتك أمس بصحبة فتاة شقراء !!

ـ انها تشارلى .. راقصة المانية رأيتها فى القاهرة ، وعرفتها هنا فى كابرى ..

وسكتت قليلا ثم عادت تقول فى صوت خفيض دون أن ترفع عينيها اليه :

ـ هل هى حبيبتك ؟!!

وقبل أن يجيب ، رفعت رأسها وقالت مستدركة :

ـ لا تجب .. انى أعرف انه سؤال بايخ !

وأجاب :

ـ بالعكس انه سؤال طبيعى ويهمنى أن تعرف انها ليست حبيبتى .. كل ما هنالك انها استطاعت أن تخفف من وحدتى ،

ثم انها موضوع شيق لقصة أكتبها ..

وابتسمت ابتسامة واسعة كادت أن تصل ما بين أذنيها وقالت فى صوت مرح وهى تضع ذراعها فى ذراعه :

ـ انتظر حتى تسمع قصتى !

وكانا قد اقتربا من الميدان الصغير عندما قال لها :

ـ اننا سنلتقى الآن بهم فانى على موعد معهم .. تشارلى وعائلتها .. هل يسوؤك أن تكونى فى صحبتهم ؟!

وغاضت ابتسامتها حتى كادت تتلاشى ، ومرت سحابة سوداء فوق وجهها ، وأجابت وهى تحاول أن تبدو فى مظهر عدم المبالاة :

ـ ابدا .. انهم أصدقاؤك ويسرنى أن أعرفهم ..

وقال وكأنه يطيب خاطرها :

ـ انى فى أوروبا لا أنتقى الاصدقاء ولكن التقى بهم !!

ووصلا الى الميدان ، وكانت العائلة كلها فى انتظاره ، وما كادوا يرونه بصحبة الفتاة الامريكية ، حتى صاحت تشارلى وهى تعض ابتسامتها بأسنانها :

ـ يظهر انك لا تحب أن تضيع وقتك عبثا !!

ثم تقدمت ووقفت أمام الفتاة ، ونظرت اليها فى وقاحة !

وصاح جان من خلال ضحكته المائعة المتهدجة التى تقطر انوثة :

ـ هالو .. كازانوفا !!

ثم مال على هانز يسند رأسه على كتفه ، ويدفن وجهه فى عنقه وكأنه فتاة تشم رائحة فتاها !

واكتفى « هانز » بأن لوى شفتيه ، ثم أحنى رأسه للفتاة احناءة عنيفة على الطريقة الالمانية

وصاحت العمة لوتى بصوتها المنفر الحاد :

ـ ان لدينا اخبارا جديدة هذا الصباح .. ارجو أن تكون اخبارا سارة !!

ثم نظرت الى الفتاة من فوق الى تحت !

وقدمها اليهم باسم « جينى » ..

***

وتحملت جينى هذه التعليقات الساخرة التى استقبلوها بها ، فى شمم وتعال بعد أن وضعت على شفتيها ابتسامة ارستقراطية

ووقف حائرا هو بين الفتاتين ..

وساءل نفسه : ايهما يختار ، لو فرض وكانت له حرية الاختيار ؟!

ووجد نفسه يحملق فى كل منهما يحاول أن يستشف شخصيتها من وراء عينيها ..

تشارلى ذات الشخصية المرحة الجريئة التى لا تخلو من وقاحة فى اطار من خفة الدم .. وجينى ذات الشخصية المتحفظة الجادة التى تنظر الى كل ما حولها نظرة علمية ، وتناقش ـ حتى عواطفها ـ مناقشة فلسفية على أسس علم النفس

وكانت تشارلى أجمل من جينى ـ فى نظره على الاقل ـ ولكن الجمال المجرد لم يكن له تأثير فى حياته قط ، وأجمل من التقى بهن كن دائما ضعيفات التأثير عليه ، ولم تستطع واحدة منهن أن تمتلك قلبه ولا اعصابه ، فهو دائما يبحث وراء الشخصية ، وطالما أحب شخصيات جميلة فى اطار خلو من الجمال ، وكان يعتقد ان المراة الجميلة تكتفى بالاتكال على جمالها فلا تحاول تربية شخصيتها ولا ذكائها ولا تحاول أن تحرك عواطفها ، انما تترك نفسها قطعة من الثلج الابيض تذوب ولا تذيب ، وتمتع عين الرجل

ولا تمتع قلبه ..

أما المراة التى ينقصها الجمال الكامل أو التى لا تحس بجمالها ، فانها تستعيض عن هذا النقص باشعال عواطفها وبالحنان الذى تسبغه على رجلها ، وبالذكاء الرقيق الذى تعامله به ، وبالليونة الناعمة التى تقنعه بها انه سيدها .. وهو دائما يريد أن يكون السيد ! ..

***

ولم يكن للحب دخل فى منطقه وهو يحاول أن يفضل بين الفتاتين ، فلم يكن ـ حتى هذه اللحظة ـ يحس بالحب نحو احداهما .. لم يكن يحب تشارلى ، ولم يكن يحب جينى .. انما كل منهما كانت بالنسبة له صديقة يقضى فى صحبتها وقتا طيبا .. ولا أكثر ولا أقل من الصداقة ! ! ..

كما لم تكن أى من الفتاتين تحبه ، فكل منهما لا ترى فيه الا رجلا مهذبا ، يصحبها ويدعوها الى الفداء أو العشاء ، ويدفع لها كأسا هنا وكأسا هناك ، وتكتفى منه بضغطة على اليد أو بضمة الى الصدر عندما يراقصها ..

وقطعت عليه تشارلى مناقشته لنفسه ، فقد بدأت تقفز وتغنى من جديد ، وتتكلم باللغات الخمس التى تجيدها ، كلاما فارغا تافها يثير الضحك .. حتى جينى اضطرت أن تضحك

واقترحت تشارلى أن يستأجروا قاربا بخاريا يطوفون به حول الجزيرة الصغيرة كلها

ووافق الجميع على الاقتراح ، ما عدا جينى فهى لم توافق ولم تعارض انما هزت كتفيها وانقادت مع الجميع ..

وكان يبدو ان كلا من الفتاتين تريد أن تسيطر بشخصيتها على الاخرى وبالتالى تسيطر عليه ..

وقد ارادت جينى ان تجذبه نحوها بأن تلفه فى طيات من الحنان والاهتمام ، كانت تقول :

« تعال هنا .. لا تجلس فى الشمس حتى لا تؤذى عينيك »

وكانت تقول عندما يدفع الحساب :

« دعنى أعد لك نقودك حتى لا يستغفلك احد ! »

وكانت تلمح قطرات العرق فوق جبينه فتسحب منديله وتجففه له .. الخ !

***

كان حنانا مفتعلا أحرجه واخجله ..

وكانت تشارلى ترى هذا النوع من الحنان فتبتسم ابتسامة صفراء ، وتعلق ساخرة : « ما الطفك من فتاة » أو « دعيه حتى لا تفسدى الطفل الكبير ! » ثم كانت تلتفت اليه وتصيح : « هالو هارون الرشيد .. أين بقية جوارى الحريم ، انى لا أرى منهن سوى اثنتين ! »

وكانت تلقى بهذه الكلمات التهكمية وهى واثقة من نفسها .. وكأنها واثقة من انها تستطيع ان تسيطر عليه وان تملكه عندما تريد وكيفما تريد .. واثقة من ان لديها سلاحا لا يستطيع مقاومته ، ولا تستطيع الفتاة الاخرى أن تجاريها فيه ..

وقد شرعت هذا السلاح عندما اصبحوا فى القارب البخارى ..

لقد خلعوا جميعا ثيابهم ، واصبحوا فى ثياب البحر ليعرضوا اجسادهم للشمس ، وشغلت جينى نفسها ـ وقد رفضت ان تخلع ثيابها ـ بأن اخذت ترتب له ثيابه التى خلعها فى ركن من القارب ، معتقدة انه ينظر اليها ممتنا ، ولكنه كان ينظر الى جهة اخرى ..

كان ينظر الى تشارلى وقد بدت أمامه جسدا عاريا رقيقا

متناسقا مثيرا لا يغطيه سوى « مايوه بيكينى » .. عشرة سنتيمترات من القماش الملون تغطى الجزء الاسفل ، وخمسة سنتيمترات تغطى صدرها الانيق ! ..

وارتفع بعينيه الى وجهها الصغير النحيل ، فوجدها تعلق ابتسامتها الطيبة الساذجة على جانب من شفتيها ، بينما شعرها الأصفر الطويل يتطاير حولها كأنغام هائمة تطوف فى موكب آلهة البحر .. وكان فى عينيها الزرقاوين تحد عنيف ، وصرخة آمرة موجهة اليه : « حاول الآن أن تختار بيننا ايها الرجل !! »

***

ولم تنتظر جوابا على سؤال عينيها ، بل استدارت له والقت بنفسها بين ساقيه ، وهو مستند فى جلسته الى جدار القارب ، ملصقة ظهرها بصدره ، ثم مدت ساقيها بعيدا

ونظر الى جينى فاذا الدماء تغلى فى رأسها حتى احرقت اذنيها، ثم اذا بها تدير عينيها الى البحر حتى لا ترى ..

ونظر الى هانز ، فاذا به لا يهمه شيء الا ان يلف ذراعه حول خصر صديقه جان ..

ونظر الى العمة لوتى فاذا بها تقرأ كتابا وترفع عينيها من فوق الكتاب لتبتسم فخورة بتشارلى ..

لقد تركوه وحيدا معها .. مع هذا الجسد المثير الناضج الملقى بين ساقيه ! ..

واحس بشعرها الاصفر المتطاير فى الهواء يدغدغ وجهه واحس بأنفاسها تضرب صدره ..

واحس بها وكأنها تتلوى فوق أعصابه كقطعة من الجمر

ورفع كفيه وقبض على كتفيها ، واحس ان اصابعه قد تجمدت فوق هاتين الكتفين ..

ثم أحس بكل الوجوه التى تحيط بهما تبتعد عنهما .. تبتعد الى بعيد جدا .. وانهما اصبحا فى عالم هائم على طيات الأثير .. ليس فيه جينى ، ولا هانز ، ولا جان ، ولا العمة لوتى ..

ثم احس وكأنه يقاوم نفسه ، واذا به يبذل مجهودا عنيفا ليدفع الفتاة عن صدره ، ثم يقفز واقفا على قدميه فوق حافة القارب ، ويلقى نفسه فى البحر بفتة ، ثم يضرب الماء بذراعيه ضربات عنيفة قاسية وكأنه يريد ان يقتل الوحش .. الوحش الذى يسمونه احيانا « الرجل » !

وعندما وقف القارب ريثما يعود اليه ، نظر الى تشارلى فرآها تبتسم .. الابتسامة الطيبة الساذجة التى تتدلى على جانب من شفتيها ، ولكن كان فيها معنى جديد ..

معنى التشفى والانتصار ، وكأنها علمته الا يعود اليها مرة اخرى بفتاة مثل جينى !

***

ولم يمض اليوم كما مضت جميع الايام

كان قد ادخل بينهم عنصرا جديدا افسد عليهم الصداقة التى كانت تربطهم جميعا ..

بدأ يحس بأعصابه تتوتر ، وبدأ يفسر كل لفتة وكل كلمة تفسيرا جديدا .. تفسير رجل يشتهى ويتمنى ويريد أن يرضى غروره ، ولو ضحى براحته وسكينة نفسه .. وبدأ الانسان فيه يضعف امام طغيان الذئب الذى يعوى فى صدره ويسيطر على رأسه .. !

وبدت جينى وكأنها تشعر بخيبة الأمل .. كانت تمنى نفسها بيوم هادئ جميل فى صحبة رجل مهذب ، فانقلب يوما متوترا اضطرت فيه ان تخوض معركة بينها وبين امراة اخرى .. معركة

ستلحقها فيها الهزيمة لأنها لا تملك سلاح غريمتها .. لا تملك هذا الشعر الاصفر الذى ينسدل كشلال من ذهب ، ولا تملك هذه الابتسامة الساذجة الطيبة التى تتدلى على جانب من الشفتين ، ولا تملك هذا الجسد الضئيل المتناسق المثير ، ثم انها لا تستطيع أن تتعرى بنفسها بين أحضان رجل .. هكذا أمام كل الناس .. ولا تستطيع ان تنطق بهذه الكلمات الوقحة المثيرة الجريئة التى تفتح أبواب الأمل أمام الرجال ..

ورغم ذلك فكانت لا تزال تحاول .. كانت تنظر اليه بين الحين والحين وفى عينيها نداء هادئ مهذب ، وكانت بين الحين والحين تضغط على يده ضغطة عابرة ، أو تضم ذراعه ضمة خفيفة ، أو تسمعه كلمة معبرة فى غلاف من ابتسامة رقيقة .. وكان يحرص دائما أن يبادلها هذه اللفتات !!

***

ولم تعد تشارلى تضحك وتقفز وترقص وتتكلم كلاما فارغا كما كانت عادتها ، بل كانت أحيانا تصمت .. وتصمت طويلا ..
ثم ترفع اليه عينيها وتدور فى انحاء وجهه ، ثم تعود الى صمتها الطويل .. ثم خرجت مرة عن صمتها ملتفتة الى جينى ، وقالت فجأة فى صوت يشبه الصراخ :

ـ الا ترين ماذا يريد هذا الرجل ؟ .. انه يريد أن تفار احدانا من الأخرى حتى يملكنا نحن الاثنين .. انه أسلوب قديم يستعمله الرجال .. وكان يجب أن تكونى من الذكاء بحيث تلمحينه .. لماذا جئت معه ؟ .. وما دمت قد جئت فلماذا تفازلينه ؟ .. لا تنكرى فانى امراة مثلك .. لقد كنت سعيدة معه ، ولم يكن يكلفنى شيئا سوى ان املأ فراغ أيامه فى كابرى ، اما الآن فانى مضطرة ان امنحه الكثير لأمنعه عنك .. هل تفهميننى ؟ .. لقد

كنت فى اجازة ، ولكننى اشعر الآن انى عدت الى العمل وانى يجب ان اعامله بنفس الاسلوب الذى اعامل به الرجال الذين يترددون على الكاباريه .. وكل هذا بسببك ، لقد افسدت اجازتى .. ولا تدهشى لصراحتى فانى هكذا دائما !!

وكانت جينى تسمع هذا الكلام مبهورة الانفاس ، تغطى وجهها بكفيها احيانا ، وتسد اذنيها باصابعها احيانا اخرى .. ثم وقفت وقد احتقن وجهها كأنها تكبت نارا فى جوفها ، وقالت وهى تحاول ان تخرج من بين شفتيها صوتا هادئا : « اظن اننى يجب ان اعود ، فانى اشعر بصداع » !

***

وهب واقفا بجانبها ــ وكانوا ساعتها جلوسا حول بركة السباحة فى كازينو « انشودة البحر » ــ ثم التفت الى تشارلى وقال وهو يحاول ان يجعل من كلماته صفعات على وجهها :

ــ لقد كنت اعلم انك راقصة ، وكنت أعلم انك وقحة .. ولكنى لم اعلم ان الراقصات يستطعن ان يكن على هذا القدر من الوقاحة .. واحب ان اقول لك انى انا الذى دعوت جينى لتكون معنا ، والححت عليها ، ثم اكدت لها انك لست شيئا بالنسبة لى .. وكنا نستطيع ان نكون جميعا اصدقاء لولا انك وقحة ، ولولا انك انانية تريدين كل شيء لك وحدك .. ولكننى لن أكون لك ابدا .. انك لا شيء سوى سيارة اجرة ادفع ثمن الوقت الذى اقضيه فيها .. و ..

وصرخت فى وجهه :

ــ اخرس .. انى اساوى الفا من امثال هذه (مشيرة الى جينى) .. الا تعلم انها يهودية ؟ الا ترى شكل اذنيها وانفها المقوس ؟ من يحمل هاتين الأذنين وهذا الأنف الا اليهوديات ؟!!

الا تعلم انى المانية .. و ..

وكانت جينى قد ادارت ظهرها واتجهت نحو باب الخروج فى خطوات مترنحة تحاول أن تسيطر عليها حتى لا تقع مغشيا عليها ، فلحق بها وهو يكرر فى صوت مسموع : « أيتها الوقحة.. ايتها الوقحة » !!

ولم يكد يخطو عدة خطوات بجانب جينى ، حتى سمع صوت تشارلى تصرخ من ورائهما :

ــ انتظر ..

ولم ينتظر ، فلحقت بهما وسارت بجانبه .. سار ثلاثتهم صامتين لا ينبس أحدهم بكلمة ، ولا ينظر أحدهم الى الآخر .. بينما تركوا بقية العائلة ــ هانز ، وجان ، والعمة لوتى ــ حيث كانوا ، دون أن يحاول واحد منهم ان يلحق بهم ، أو يسألهم الى اين ، أو يعلق بكلمة .. وكأن ما حدث كان شيئا طبيعيا بالنسبة لهم ، يمكن أن يحدث كل يوم

***

وعندما وصلوا الى السيارة التى تحملهم الى قلب الجزيرة ، لم يدع تشارلى الى الركوب ، ولكنها ركبت من تلقاء نفسها وجلست بجانبه .. وكان يستطيع ان يطردها أو يقذف بها من السيارة .. ولكنه لم يفعل ، وبقى صامتا منكسا رأسه ، ثم حاول خلال الطريق ان يطيب خاطر جينى ، فمد يده وامسك بيدها وضغط عليها، وهو يحاول ان ينظر اليها مبتسما ومعتذرا ، فاذا بها تسحب يدها من يده فى رفق ، وتنظر اليه بعينين ساخرتين ، وتبتسم له ابتسامة باهتة نصفها احتقار ونصفها شفقة ، أو كأنها تريد أن تقول له : « انك رجل ضعيف تافه » !

ولكنها لم تقل شيئا وادارت راسها وعلقت عينيها بأشجار الطريق ! ..

ووصل الى الميدان الصغير الذى يتوسط الجزيرة ، واعتقد ان خير ما يستطيع ان يفعله حتى يخفف من حدة التوتر — وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء — هو أن يدعو نفسه ويدعو الفتاتين الى كأس فى الحانة التى تسمى « نمرة ٢ » .. الحانة التى تنزل اليها تحت الارض والتى يؤمها صاحبات الملايين العجائز ، والشبان الذين يبيعون دماءهم للعجائز بالثمن ، والكلاب التى تستعيض بها العجائز عن الابن والزوج والعشيق !

وقبلت تشارلى الدعوة فورا ..

وقبلت جينى بعد الحاح ..

وما كادت تشارلى تدخل الحانة حتى بدأت تقفز وتغنى وترقص من جديد وبدأ جميع الزبائن يغنون معها ويرقصون معها .. وكانت تلتفت بين قفزاتها واغانيها فتجده جالسا فى صمت بجانب جينى حول مائدة بعيدة لا يتكلمان ولا حتى يبتسمان .. !

***

كانت جينى ما تزال مجروحة الكرامة ، وكانت شخصيتها تضعف دائما عندما تكون فى مثل هذه الحالة ، حيث تستطيع تشارلى — او اية راقصة — انتنتصر عليها وتسحق شخصيتها..

فهى لا تجيد الا المناقشات الجدية العلمية ، ولا تستطيع أن تمنح الرجل اكثر من الحنان الهادىء الوقور الخافت ، وكل ذلك لا يصلح هنا ، وربما كان لا يصلح فى كابرى كلها ولا مع مثل هذا الرجل الذى يريد هزات عنيفة لينسى همومه ومشاكله ..

ولم تدعه تشارلى لجينى ولا للصمت طويلا ، فما كاد ينتهى

من كأسه الثانية حتى جاءت اليه وجذبته من ذراعه ثم اتجهت الى « البيانو » حيث اعتاد ان يعزف موسيقار أمريكى مشهور — هكذا يقول الاعلان المعلق على الحائط — وهو يغنى بصوت مذبوح لا تستطيع ان تتذوقه الا اذا كنت من مدمنى الحانات .

ورجت العازف أن يخلى مكانه ، ثم جلست على مقعد العزف وصاحت فى الزبائن وهى تضحك :

— ان هذا السيد الكريم سيغنينا اغنية مصرية رائعة !!

واشارت اليه ..

وصفق الزبائن وهللوا ..

ثم بدات تعزف اللحن المصرى المشهور : « آه يا زين العابدين ! » ..

وهو يستطيع ان يغنى بعد الكأس الثانية ، وسبق أن غنى لها هذا اللحن بالذات عدة مرات ، ولكنه تردد هذه المرة واحتفظ حينا بوقاره .. فبدات هى تغنى بلهجتها العربية المضحكة التى التقطتها اثناء اقامتها فى القاهرة ، فاذا هو ينساق معها ، ويغنى ويرتفع صوته بالغناء ويصفق الزبائن على دقات اللحن ، ثم يقوم بعضهم وبعضهن يرقصون رقصا شرقيا مضحكا ..

***

وساد مرح وهرج جميل ، وضحك حتى ثملت عيناه بالدموع .. وعندما انتهى اللحن ، وهدات عاصفة المرح ، تذكر جينى ، فالتفت الى حيث كانت تجلس ، فلم يجدها . لقد اختفت .. !

واندفع نحو الباب يريد ان يلحق بها ، ولكنه قبل أن يخرج سمع لحنا رقيقا كانت تشارلى تعلم انه لحنه المفضل ، وكانت تعلم انه يتأثر به الى حد ان يبكى احيانا له .. وسمع العازف

الامريكى يغنى بصوته المذبوح كلمات اللحن ، ثم سمع صوتها وهى تترنم معه كأنها ترتل انشودة دينية فى معبد مقدس ..

كان اللحن يسمى « قلبى الساذج » ..

وكانت كلماته تقول :

« ان الليل كلحن ساذج .. فاحذر ياقلبى الساذج !

« والقمر مضىء ابدا .. فاحذر يا قلبى الساذج !

« احذر فهناك فارق دقيق بين الحب والخيال .. فارق لا تستطيع ان تراه فى ليلة كهذه .. فكلاهما يمنحك نفس الشعلة العاطفية ، عندما تجد نفسك ضائعا فى سحر قبلة

« فاحذر .. يا قلبى الساذج !! ..

ووقف عند الباب لا يخرج ولا يتحرك ..

ونسى جينى ، ونسى نفسه ، وأحس بقلبه الساذج يتلوى فى صدره تائها بين خياله وحبه .. خياله الذى يلاحقه فى كل مكان ، وحبه الدائم العبقرى المقيم الذى تركه فى القاهرة حيث اعتاد أن ينتظره فى صبر هادىء كلما غادره فى رحلة الى أوروبا !

***

وعندما انتهى اللحن ، وجد نفسه يدير ظهره الى الباب ويعود اليها ..

عاد اليها دون أن تدعوه ، وكأنها كانت واثقة ان هذا اللحن كفيل بأن يعيده اليها

ورأى على وجهها ابتسامتها الطيبة الساذجة ، ولم يرها من قبل فى مثل هذه الطيبة والسذاجة .. والحنو !

ووضعت ذراعها فى ذراعه ، وجذبته معها ، وهى تقول :

ـ كفانا من هذه الحانة .. !

وعندما أصبحا فى الطريق سألها فى صوت يحشرجه خياله المشتعل :

ـ الى أين .. ؟

ـ الى الفندق ..

ـ فندق من ؟

ـ فندقنا !!

ـ ولكنك تقيمين فى فندق غير الفندق الذى أقيم فيه !

ـ من قال هذا ؟ لقد حجزت غرفة فى فندقك هذا الصباح !

وكانت كاذبة ..

ولكنها ذهبت معه الى الفندق الذى يقيم فيه ، وحجزت لنفسها غرفة وادعت ان حقائبها ستصلها فى الصباح ..

وعندما وصلا الى حيث يجب ان يفترقا ، ويمضى كل منهما الى غرفته ، وقفا صامتين وفى عينيهما سؤال واحد ، لا يستطيع احدهما أن يجيب عليه

وافترقا دون أن يقول احدهما للآخر مساء الخير !

ودخل غرفته ، والقى بنفسه على مقعد وبدأ يدخن سيجارة ويحرقها فى قسوة وكأنه يريد أن يحرق خيوط قلبه ، ثم قام بخلع ثيابه ..

***

وقبل أن ينتهى من ارتداء بيجامته سمع طرقا خفيفا على الباب فصاح دون أن يسأل من بالباب :

ـ ادخل ..

ودخلت ..

واغرق فى الضحك ..

كانت ترتدى « روب دى شامبر » فضفاضا واسعا يكاد

يبلعها ، وكانت تربطه حول خصرها بمنشفة كالتى اعتاد ان يجفف بها وجهه !

وقالت وهى تضحك وتدور حول نفسها :

ـ ما رايك فى هذه الموضة الجديدة .. لقد اقرضتنى الخادمة هذا الثوب ريثما تصل حقائبى فى الصباح

وخيل اليه ان هذا الثوب هو أجمل موضة رآها فى حياته ..

وكف عن الضحك وركز عينيه فى عينيها وبينهما نداء صارخ..

ثم خطا نحوها فاذا بها تفلت من طريقه ، وتتجه الى الشرفة ، قائلة فى صوت ناعم :

ـ ان شرفتك تطل على البحر ، لهذا جئت اليك ، فانى لا استطيع النوم قبل ان ارطب صدرى بمثل هذا الهدوء !

وخرج وراءها الى الشرفة ، ووقف بجانبها ، ثم أحس بذراعه يلتف حول خصرها ، ثم يجذبها اليه ، ويطل بشفتيه فوق شفتيها ، وقبل ان يلتقيا ، تكلمت دون أن تبتعد عن صدره :

ـ انى استطيع ان احبك ، ولكنى لا اريد .. واستطيع ان امنحك نفسى ، ولكنى لا أريد .. لأنى لا اريد ان احبك !

وقال وصوته لا يكاد يخرج عن حلقه :

ـ لا تقاومى .. فالليل لنا !

ـ انى فى الليل أنتظر الصباح .. ثم انى تعودت ان اقاوم حتى نفسى .. ان حياتى كلها سلسلة من المقاومات .. دعنى اروى لك قصتى لعلك تفهمنى وتعذرنى ! ..

كانت تتكلم بصوت ناعم هادىء كأنغام قيثارة بريئة

وابتعدت عنه ، واسندت راسها على العمود الحجرى ، وبدات تروى قصتها ..



٣

وترددت طويلا قبل أن تبدأ فى رواية قصتها ، وكأنها تبحث فى راسها عن خيوط ضائعة ممزقة تحاول أن تصلها لتجعل منها خيطا واحدا ..

واختلجت عيناها الزرقاوان الصغيرتان وهى تبحث بين طيات الضباب الاسود عن الماضى البعيد .. الماضى الذى ذاقت فيه الجوع والتشرد والحرمان ، وتعلمت منه كيف تنام بعين واحدة ، وكيف تقف على اطراف اصابعها دون أن تستند على أحد ، وكيف تجعل من الايام عملية مرتبة الأرقام لا حساب فيها للعاطفة ولا للاحساس ، وكيف تجعل من الحياة كلها معركة كبرى يجب ان تبدأ بالانتصار على النفس ، وسوقا مكتظة ، كل شىء يباع فيها ويشترى بالثمن المحدد .. !

وخيل اليه انها تريد أن تبكى وهى تنتقل به الى الوراء حيث ولدت فى مدينة فرانكفورت بألمانيا ، بل خيل اليه انه رأى الدموع فى عينيها .. ولكنها كانت دائما أقوى من الدموع .. ولو ضعفت لحظة واحدة أمام دموعها فستبكى العمر كله

كانت طفولتها معذبة ..

كانت فى الثانية من عمرها عندما ماتت امها ، وعاشت فى كنف اب سكير ، كان عاملا فى أحد المصانع ، وكان يصحبها بعد انتهاء

عمله الى الحانة لتنتظره طويلا ، صامتة هادئة .. ترى الرجال من حولها فى وجوه منفرة ورائحة كريهة ، فتعلمت كيف تكرههم ، وتعلمت الا تخافهم !

وكانت احيانا تنام فى الحانة تحت اقدام الرجال.. كأنها كلبة لا يحس بها احد ، بل ربما لو كانت كلبة لأحسوا بها ولأثارت اهتماما لا تثيره فتاة فى الثالثة أو الرابعة من عمرها ، صفراء ضعيفة ضئيلة الجسم

***

وانتقل والدها من المانيا الى بولندا حيث وجد عملا خيل اليه انه خير وابقى .. وانتقلت هى من حانات فرانكفورت الى حانات وارسو .. تنتظره الى ان ينتهى من خمره ، بينما تقضم قطعة الساندوتش التى يلقى بها اليها ، ثم تنام تحت الموائد بين اقدام المخمورين ..

ورغم ذلك كانت تحب والدها ، فقد كان لا ينساها ابدا حتى فى أشد حالات سكره .. وقد تعودت كلما كبرت أن تهتم به ، وأن تدير له البيت الصغير الفقير الذى يقطنان فيه ، وتعودت أن تودعه فى الصباح وأن تنتظره فى المساء ، وان تصحبه الى الحانة .. كان لها كل شىء .. تهتم به ويهتم بها .. وفجـأة فقدت هذا الشىء .. فقدته فى الحرب .. وبكت عليه ، أو انها بكت على نفسها عندما اصبحت وحيدة ضائعة يصحبها الخوف والحيرة والجوع !

وعطفت عليها عائلة مجاورة فآوتها نظير المبلغ التـافه الذى باعت به الأثاث الذى تركه والدها ، ونظير معاش ضئيل تصرفه لها الحكومة الالمانية .. وكانت هناك شبه خادمة ، تكنس وتغسل وتتحمل فى صبر وانفة لذعات سيدة الدار ..

وتذكرت فى هذه الاثناء أن لها اخا من أمها يعيش فى السويد ، كانت قد سمعت به ولكنها لم تكن قد رأته ، فبدأت تراسله وترجوه أن يدعوها لتعيش معه .. ووعدته بأن تكون أى شىء يريده .. ولم تكن تخاطبه باسم العاطفة ولم تكن تحاول أن تثير شفقته عليها ، فهى لا تؤمن بالعاطفة ، أو ان العاطفة لم يكن لها تأثير فى حياتها .. فقد احبت والدها لأنها كانت فى حاجة اليه ، ثم جاءت لتعيش بين هذه العائلة لأنهم فى حاجة الى معاشـها الحكومى ، وفى حاجة الى خدماتها الصغيرة

واجابها اخوها بأنه لا يستطيع أن يدعوها اليه لأنها لن تفيده بشىء ، فقد كان هو الآخر لا يؤمن بالعاطفة ، ولكنه ذكر لها انها لو استطاعت أن ترقص فربما استطاع أن يضمها الى الفرقة التى يرقص بهـا ، فهو راقص محترف يعمـل باحدى الفرق الراقصة ..

***

ووجدت أن الرقص هو خير مهنة تستطيع ان تحترفها .. فبدأت ترقص .. كانت ترقص فى حجرة نومها ، وترقص وهى تصعد وتهبط السلالم .. وترقص وهى سائرة فى الشارع .. ولكنه كان رقصا فطريا مشوها تستوحيه من لا شىء ، وبلا فهم

ثم التقت بسيدة كانت تزور العائلة التى تقيم معها وكانت مسافرة الى ايطاليا لتلتحق بعمل هناك ، فصحبتها ..

وهناك فى ايطاليا التحقت بخدمة عائلة غنية ، كخادمة ، أو مساعدة لخادمة .. والتحقت فى الوقت نفسه بمدرسة لتعليم الرقص ..

واذابت نفسها فى ساقيها حتى أصبحت راقصة ..

راقصة تستطيع أن ترقص جميع الرقصات ، وتستطيع أن تحرك جسدها الصغير على أى نغم وكل نغم ، وتستطيع أن ترفع

ساقيها حتى تصل بهما الى قمة راسها ، وأن تلوى جذعها حتى لا تعرف اين امامها واين وراءها !!

وأرسلت الى اخيها تنبئه انها اصبحت راقصة ، وانها رقصت بالفعل على مسارح روما ونابلى وميلان ، فأرسل اليها يدعوها الى لقائه فى اسبانيا حيث كانت تعمل فرقته الراقصة

***

والتقت بأخيها لأول مرة ، وكانت فى التاسعة عشرة من عمرها .. ولم يتبادلا القبلات والدموع عندما التقيا ، فلم يكن بينهما ما يربطهما برباط العاطفة والاخوة ، بل نظر كل منهما الى الآخر نظرة من يشاهد شيئا معروضا فى احد الحوانيت التجارية . ثم بدآ فورا يضعان شروط العمل ، وبدآ يتدربان على الرقصة التى سيعرضانها على الجمهور .. وكانت رقصة عنيفة قاسية ، يلقيها خلالها على الارض من عل ، ثم يرفعها بين ذراعيه ويطوح بجسدها وكانه يطوح بسلسلة مفاتيح بين اصابعه ..

وكان عليها ان تحتفظ بابتسامتها خلال كل ذلك ، وان تبدو كملاك برىء منتش هائم على انغام الموسيقى !!

ونالت رقصتها نجاحا كبيرا واصبحت عضوا بارزا فى الفرقة الراقصة ، وتكاد تكون الراقصة الاولى ..

وبدات تنتقل مع الفرقة من بلد الى بلد ، وتعيش حياتها فى الفنادق والبواخر وقطارات السكة الحديد ، وتقضى لياليها ترقص ثم تجالس الزبائن نظير زجاجات الشمبانيا .. حياة قلقة لا تستقر ، ليس لها نهاية ، وليس لها هدف ، الا ان تحصل على لقمة العيش ، وتدخر مع اخيها ما يحقق حلمهما الاكبر فى ان يكون لهما بيت يملكانه ويستقران فيه ، ويكون لهما مطبخ يطهيان فيه طعامهما بأيديهما وكما يروق لهما ، ويكون لهما حديقة صغيرة

يتنسمان فيها هواءها وحدهما لا يشاركهما فيه أحد ، ولا تلوثه مداخن القطارات والبواخر ، ولا ابخرة الخمر ورائحة الدخان التى تزدحم بها ابهاء الفنادق والملاهى

وكانت تعلم ان حياتها هذه حياة هزيلة ، ليس لها ما يسندها ولا ما يضمن بقاءها .. انها حياة أرق من ورقة السيجارة تستطيع اى شرارة ان تحرقها وتأتى عليها ، ثم تتركها هشيما اسود تدوسه الاقدام .. ولن يحرقها الا شرارة يبعثها رجل تحبه ! ! ..

***

رجل كالذى احبته زميلتها « آنى » ، وهجرت مهنتها لتعيش معه ، ثم هجرها بعد سنوات وبعد أن حطم جسدها وتركه رخوا مهدلا لا يصلح للرقص .. رجل كالذى عاشرته زميلتها الأخرى « كيتى » فنفخ فى بطنها ولدا ثم تركها لتدور به بين العواصم وتضطر ان تحترف البغاء لتؤوى هذا الولد وتعوله

وهى تحتفظ أمام عينيها بصور جميع زميلاتها اللائى حطمن حياتهن بين اذرع الرجال فأصبحن جراثيم هائمة تتسكع فى الطرقات وتنام فى صناديق الزبالة .. وهى تخشى على حياتها أن تنتهى بمثل هذه الصورة ، ولكنها لا تخشى عليها من الرجال فقد تعلمت كيف تروضهم منذ ان كانت طفلة تطوف مع والدها الحانات وتنام بين اقدام المخمورين ..

وهى ايضا واثقة من ان الرجل ـ اى رجل ـ لن يستطيع ان يأخذ منها اكثر مما تعطيه ، ولن يستطيع ان يصل الى ابعد مما تسمح له ..

لكنها تخشى على حياتها من نفسها ، فهى تعلم ان لها قلبا كبقية القلوب ، عرضة لأن يخفق بالحب ، وان لها جسدا كبقية

الاجساد عرضة لان ينفعل ، ويتطلب ، ويثور وراء حقه

وقد قضت حياتها كلها تقاوم قلبها وجسدها ..

وكانت فى العشرين من عمرها وهى لا تزال عذراء ..

وبدات عذريتها هذه تضايقها ـ هكذا كانت تقول ! ـ وبدات تحس انها لن تصبح امراة كاملة لها ثقة المراة بنفسها ، وزهو المراة بأنوثتها ، وسيطرتها القوية على من حولها من رجال ، الا اذا تعدت مرحلة العذارى

وكانت تناقش هذا الموضوع ـ موضوع عذريتها ـ مناقشة نفسية جنسية ، أو مناقشة سيكولوجية فسيولوجية علمية .. فهى لم تكن تريد تعدى طور العذراء لتندفع فى لذات الجسد ، بل فقط لتدخل فى طور نفسانى جديد يضفى عليها سحر المراة ويجعل لها جاذبية اقوى بين رواد المراقص

***

وكانت تعمل ايامها فى بيروت بينما هذه المناقشة العلمية تلح على راسها الى أن تمكنت منها ، فقررت قرارا حاسما ان تصبح امراة ! ..

وكانت قد التقت فى بيروت بشاب من رواد الصالة التى ترقص فيها ، واحست نحوه بعاطفة اشبه بالحب .. كان قويا رائعا .. غنيا كريما ، وكان له كل ما تطمع فيه راقصة .. وكان يجب ان يكون اول من تفكر فيه عندما اتخذت قرارها الاخير ان تصبح امراة . وقد فكرت كثيرا وكانت صورته تلاحقها فى نهارها وتندس معها فى فراشها ، وتقلقها فى نومها .. ورغم ذلك ابت أن يكون هو الرجل المختار .. فقد كانت تعلم ان الحب هو الشرارة التى تحرق حياة الراقصات.. تحرق ورقة السيجارة وتتركها هشيما أسود تدوسه الاقدام !

وفى ذات ليلة التقطت رجلا من بين رواد الصالة .. رجلا لا تعرفه ، ولا تذكر اسمه ولا تدرى أهو لبنانى أم جريكى .. ثم أسلمت له نفسها ليجعل منها امراة !

وهى تذكر هذه الليلة جيدا .. لقد خيل اليها انها فى غرفة عمليات بمستشفى طبيب وقح .. واضطرت أن تشرب من كؤوس الويسكى اكثر مما تتحمل حتى تغيب عن الوعى .. وتذكر انها تألمت وانها تقززت ، وانها ارادت أن تقتل هذا الرجل حتى لاتراه ثانية فيذكرها بكرامتها التى بذلتها رخيصة بين ذراعيه ، وجسدها الذى امتهنته فى سبيل فكرة حمقاء تمكنت من راسها واصبحت امراة ..

ولا تدرى الى اى حد تغيرت .. ربما اصبحت اشد انوثة ، واكثر ثقة بنفسها .. وابعد سحرا ، واقوى سيطرة على الرجال .. ولكنها متأكدة انها لم تصبح اسعد مما كان عليه حالها ، فان جسدها الصغير بدا يؤرقها ، واصبحت فى حاجة الى مضاعفة قوتها وعنادها حتى تقاوم نداءه ، وتقاوم جاذبية الرجال الذين يروقون فى عينيها ..

وغادرت لبنان دون ان تسلم نفسها لرجل آخر .. حتى هذا الشاب الرائع ، الفنى الكريم ، لم ينل منها شيئا ، رغم كثرة ما بذله من أجلها

وجاءت مع الفرقة الراقصة الى القاهرة ..

***

وعندما وصلت من قصتها الى هذا الحد ، رفعت اليه راسها ونظرت اليه وهو جالس قبالتها على سور الشرفة المطلة على البحر وقد عقد ذراعيه فوق صدره العارى ، يستمع اليها صامتا

دون ان يعلق بشيء الا بابتســامات تائهة ليس لهـا معنى ولا صدى ..

ثم قالت وهى‌تسحب من سيجارتها نفسا طويلا تريح به نفسها من قصتها :

ـ انى اقول لك كل شيء .. فهل تحتمل صراحتى حتى لو اغضبتك ؟ ! ..

وقال متعجلا فى لهجة حازمة :

ـ تكلمى .. لن أغضب !

***

وعادت تروى قصتها :

« عندما وصلت الى القاهرة التقيت فى الليلة الاولى بصديقك « رفيق » .. هل تعرفه ؟ هذا الشاب الطويل واسع العينين أسود الشعر ، الذى يتعثر فى نطق كلماته حتى يخلع قلبك بين كل كلمة واخرى .. لقد جالسته فى الملهى .. وكان كريما مبذرا ، بل كان اكثر من كريم ، واكثر من مبذر ، فقد استطاع ـ ومنذ الليلة الاولى ـ ان يصل الى قلبى ويعصره بشدة ثم يخلعه من مكانه ، واستطاع فى رقة وفى اسلوب ناعم جميل ان يشعل الثورة فى فتندلع ساخنة ملتهبة فى عروقى ، واحسست وانا بجانبه على المائدة أن جسدى ينتفض ولن يهدأ الا بين ذراعيه

« ورغم ذلك فقد قاومته .. وقاومت قلبى وجسدى .. وشعرت من شدة ما قاومت ان الدنيا تدور امام عينى ، وانى ساقع مغشيا على وانا انصرف عنه مودعة معتذرة عن قبــول دعوته لقضاء بقية الليل فى بيته ..

« وصدقنى ان هذه المقاومة استمرت ثلاثة اشهر .. كنت خلالها اراه كل يوم ، فكنت الهى نفسى عنه بأن اضحك مع بقية

الزبائن وارقص واغنى لهم ، واعب من‌الشمبانيا ما يكفى ليصرعنى ورغم ذلك فان وجهه كان يلاحقنى دائما ، وكلماته المتقطعة التى تخلع القلب ترن فى اذنى من بين ضجيج الانغام وصراخ الزبائن ، وكنت قد علمت انه معبود الراقصات ، وان له فى كل ليلة مغامرة جديدة ، بل انى كنت اشاهده بعينى يصحب راقصة أو أخرى من زميلاتى فى آخر كل ليلة .. ورغم ذلك فلم أستطع أن أتخلص من الحاح خياله ، ولا من ندائه الصارخ الذى يأتينى كل ليلة من بعيد .. وكنت اذهب لأنام وحيدة ، فأتقلب على جنبى ثم تنتابنى ثورة فأمزق الوسائد واغطية الفراش ، ثم اغرس اظافرى فى جسدى احاول ان امزقه هو الآخر حتى أستريح منه ، ومن النار الظمأى المندلعة فيه

***

« الى ان كانت الليلة التى التقيت فيها بك .. هل تذكر ؟ لقد سلطنى عليك اصدقاؤك لأداعبك بعد أن أبلغونى اعجابك بى .. وقد جئت اليك وغازلتك فى جراة ووقاحة ، ثم طلبت منك ان تنتظرنى حتى اخرج معك من الملهى آخر الليل .. وكنت اريد ان تنتظرنى ، لا لأنى أحببتك من اول نظرة كما خيل اليك ، ولا لأنك اثرت فى احساسا ما ، ولا لأنى كنت اطمع فى شيء منك .. بل لان مقاومتى لرفيق ، أو مقاومتى لنفسى ، كانت قد انهارت ، وكنت متأكدة انى لن استطيع ان ارفض دعوته هذه الليلة ، وانى سأستســلم له بقلبى وجسدى واحرق حيــاتى ومستقبلى بين ذراعيه .. وكنت اريدك لأستعين بك على شحذ مقاومتى ، كنت اريد ان احتمى بك من نفسى ، فكنت سأخرج معك حتى لا أخرج معه ، ولم اكن انوى ان امنحك شيئا من جسدى ، بل كان دورك سينتهى عند باب الفندق الذى اقيم فيه حيث تتركنى لآلام قلبى

وصراخ جسدى .. اما لماذا اخترتك فلأننى لا أعرفك ، فلن افضى اليك بشىء مما اقاسيه فأزداد اشتعالا ، ولأنى توسمت فيك انك شاب طيب ، ولأنك وسيم مهذب لن تكلفنى صحبتك ان اضغط على نفسى أو انافق من أجلك ..

« ولكنك لم تنتظر .. أيها الغادر .. وعندما عدت الى حيث تركتك بجانب البار لم أجدك انما وجدت مكانك « رفيق » .. ولم يكلمنى ، بل انه لم يبتسم لى كما اعتــاد أن يبتسم لكل الناس .. انما اخرج من جيبه مفتاح بيته ووضعه أمامى ، ونظر الى نظرة صارمة وتركنى وانصرف

« ولحقت به فى بيته وكنت اعلم اين يقيم ، اذ انه سبق أن دعا راقصات الفرقة كلها الى عدة حفلات خاصة ــ وهنــاك احتوانى بين ذراعيه ، وعشت بين هذين الذراعين سبعة أيام انتهت بعدها مدة اقامتى فى القاهرة ، وسافرت مع الفرقة الى ايطاليا .. وكل ما فعله من اجلى هو أن جاء يودعنى حتى الباخرة فى ميناء الاسكندرية

***

« وكان هذا كل ما يستطيعه .. لم يكن يستطيع أن يتزوجنى .. ولم اكن أستطيع ان أبقى معه بلا زواج .. ولم اكن استطيع أن اتركه دون ان اترك معه قلبى ونبضات جسدى ثم اختفى عن عينيه ..

« وكان هذا هو كل نصيبى من حبى الأول .. وهو نصيبى من كل حب .. فلن التقى برجل الا لأفترق عنه ، ولن يخفق قلبى الا ليسكت ، ولن ينتشى جســدى الا ليهمــد بين الأنين والتوجع ..

« وانت .. انى استطيع ان احبك ، وقد تستطيع أن تنسينى

« رفيق » وان تخمد ذكرياته التى تركها فى جسدى .. ولكن الى متى ؟ انك ستعود الى مصر بعد أيام ، وسأتجه انا الى روما ومن بعدها الى أمريكا الجنوبية .. فماذا تفنينى هذه الايام القليلة التى اقضيها معك ! ولماذا أكلف نفسى ذكريات تلاحقنى دون أن أستطيع أن الحق بها ؟ ولماذا اندفع فى حب قضى عليه ان يولد فى الماضى قبل ان يعيش فى الحاضر ؟ الست على حق !.. اليس هذا هو المنطق الذى يجب ان تعتنقه كل راقصة ؟ .. تكلم .. قل انى على حق » !!

وتكلم .. أجابها فى صوت يكاد يقطر دموعا ، وامسك بكتفيها فى حنان وهو يبتسم لعينيها الثائرتين ابتسامة يحاول أن يواسيها بها .. يواسيها فى ماضيها المعذب، وحاضرها الشقى ، ومستقبلها القلق :

ــ انك على حق .. ولكنى لم أطلب منــك حبا .. تكفينى صداقتك .. ويكفينى أن تكونى سعيدة فى صحبتى !

وأجابت وهى تبتسم شاكرة ممتنة :

ــ هذا ما أرجو .. اننا نتبادل السعادة كصديقين كل منا فى حاجة للآخر .. انى فى حاجة اليك لتدفع ثمن هذه الليــالى الجميلة وهذه الايام الغالية ، وانت فى حاجة الى لأخفف من وحدتك واريح رأسك من همومك .. اليس كذلك ؟

ــ لا تتحدثى عن الثمن ، فاننا لا نشترى ولا نبيع .. ولا تعاملينى كراقصة فى كباريه .. تذكرى انك فى اجازة وتذكرى اننا مجرد أصدقاء .. ونريد ان نبقى أصدقاء

ــ اتفقنا .. واعتذر عن سوء التعبير .. والآن دعنى اقبلك قبلة المساء .. كأصدقاء

وكان المساء قد ولى ، وانتشرت خيوط الفجر تلف الجزيرة فى لون هادىء خافت كأطياف الأحلام .. واقتربت منه واستندت على صدره العارى ، ورفعت اليه وجهها ..

وحاول أن يقبلها فى وجنتها أو فى جبهتها ، ولكن شفتيه انزلقتا الى شفتيها !!

وحاولت أن تفر بشفتيها من شفتيه ، ولكنها عادت بهما اليه ، عادت بهما وملؤهما الحياة والشباب والنشوة .. وعاشا فى قبلة هادئة سرت فى دمائه حتى حركت اخمص قدميه ..

ورفع شفتيه عن شفتيها ريثما يلتقط انفاسه المبهورة ..

وعندما حاول أن يعود بشفتيه اليها ، اصطدم بوجهها يقابل عينيه ، وقد نفخت صدغيها ، وكورت شفتيها ، وقطبت حاجبيها ، وشدت بأنفاسها على أنفها .. وكان وجهها كريها منفرا كوجه القرد ..

وابتعد عنها نافرا .. وهو يصيح :

ـ ما هذا .. لماذا تشكلين وجهك بهذا الشكل القبيح ؟!

وفكت أسارير وجهها فعادت كما كانت ، وقالت ضاحكة :

ـ انها طريقة انفر بها الرجال عندما اريد أن أقاوم قبلاتهم .. لا تتعب نفسك ، فلن امنحك شيئا .. تصبح على خير !!

***

وخرجت من غرفته تتعثر فى ثوبها الطويل ، وتركته يضرب الحائط بقبضة يده ، وهو يسائل نفسه مغتاظا : « متى تنتهى هذه القصة ؟! » . . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .



٤

وحاول ليلتها ان ينام ، ولكنه كان كلما أغمض جفنيه قفزت بينهما صور من ماضيه تقضه وتثير حسرته على نفسه ، فيثور ضميره يؤنبه على هذه الايام التى يبعثرها جريا وراء خيال جامح لا حد له ولا قرار

صور فتيات التقى بهن ، فكان يؤلف لكل منهن قصة فى ذهنه يعيش فيها ، وينتظر منها ان تعيش معه فى نفس القصة .. ثم تمر السطور والفصول فاذا به يكتشف ان هذه الفتاة ليست هى البطلة التى اقامها لقصته وأن هذه الحوادث ليست هى الحوادث التى كتبها بخياله .. فيصدم ، واحيانا تشتد به الصدمة حتى تفقده وعيه ، وتمزق كبده ، وتعكر أيامه ..

انه لا يبحث عن الحب ، ولن يحب واحدة من هؤلاء الفتيات ، فقد أحب مرة واحدة .. حبا ولد معه ولا يزال يعيش فيه .. حبا يأبى أن ينزله الى مستوى المغامرة العابرة كاحدى هـذه المغامرات التى مرت بحياته ، بل ينزله الى مستوى قلمه ليكتب عنه كما اعتاد ان يكتب عن عواطفه وخواطره ..

انه لايبحث عن الحب .. ولـكنه مصاب بخياله .. الخيال الرقيق الحساس الذى يصور له الفتيات ملائكة فيندفع معهن بريئا ساذجا الى أن يكتشف انهن شياطين ، فيثور .. يثور على

نفسه وعلى خياله الساذج .. ويثور معه ضميره على شبابه الذى يمتهنه كل هذا الامتهان ويستبيحه لكل فتاة تمر أمام عينيه ..

انه مريض بهذا الخيال .. ولكنه يعيش بهذا المرض ، فلولا خياله لما تعلق بكل هذه المثل العليا التى عرف عنها تمسكه بها ، ولولا خياله لما ذرف هذه السطور التى يصبغها بدمه ويقطرها من دموعه ، وينتزعها من نبضات روحه ..

انه مريض .. فأشفقوا عليه ، ولا تحسدوه على مرضه !

***

وقد كان فى احدى نوبات هذا المرض ، عندما قابل الراقصة تشارلى ، فأقام لها من خياله قصة خصص لها فيها دور البطلة .. ولكن البطلة خرجت على دورها ، وتقمصت شخصية أخرى غير هذه التى صورها له خياله ، وحطمت سطور القصة سطرا سطرا ، وفككت فصولها فصلا بعد فصل

كان قد صورها رقيقة بريئة تبعث الرقة والبراءة فى أيامه ، فاذا بها قوية عنيدة تجعل من أيامه معركة بينه وبين نفسه

كان قد صورها ، فتاة تؤمن بالحب وتضعف أمامه فتحبه وتستجيب لندائه وتعيش معه فى لحن هادىء ينسيه همومه ، فاذا بها تكفر بالحب ، وتكفر بندائه ، وتسمعه لحنا صاخبا يتعب ضجيجه القلب ويهد الكيان .. ثم اذا بها تتساقط على جسده وتثير فيه أحقر غرائزه لتضمن خضوعه لها ..

وكان قد صورها فنانة تبيع الدنيا كلها من أجل فنها ، وتجوع وتتشرد من أجل الرجل الذى يغذى عواطفها حتى تلتهب بالفن وتمتد ناره الى قدميها فترقص كألسنة اللهب فى المعبد المقدس ، ولكنها كانت تريد أن تشترى الدنيا بفنها ، وكان الفن فى نظرها عملية حسابية بسيطة لها قواعد وجداول كجداول الضرب ، وكان الرجال فى نظرها محافظ نقود تشترى بها هذا الثوب ، او

تأكل بها فى هذا المطعم ، أو تفتح زجاجة شمبانيا ..

صحيح انها تعذبت فىحياتها وقاست المر فى طفولتها وشبابها .. وصحيح انها تعيش حياة قلقة ليس لها سند ولا ضامن وقد يحطمها ان تنقاد لعواطفها أو أن تؤمن بالحب ، وقد يكون من حقها بعد ذلك أن تقسو على الرجال ، وأن تستغلهم وأن تحذرهم ، وتحذر نفسها منهم .. قد يكون كل هذا صحيحا ولكن ما ذنبه هو ؟ ..

ولماذا يقضى معها أيامه القليلة التى اختصرها من سنوات عمله ليريح راسه المنهوك ، وانفاسه اللاهثة ؟!

***

انه يكرهها .. ويكره أيامها .. ويكره شخصيتها المعقدة القاسية .. بل خيل اليه انه يكره ابتسامتها التى تعلقها على جانب من شفتيها ، والتى طالما أعجب بها

ونام ليلته ، وهو يكرهها ..

ولا يدرى كم قضى فى نومه الى ان احس بأنفاس معطرة تطوف حوله ، وخصلات من الشعر الناعم تدغدغ وجهه ، ففتح عينيه واذا به يلتقى بعينيها وهما تبتسمان له ابتسامة الصباح

كانت تجلس على حافة السرير وقد مالت بوجهها الصغير النحيل فوقه ، وامسكت بخصلة من شعرها الذهبى تطوحها تحت أنفه ، بينما تهمس فى أذنيه حتى توقظه من نومه ..

واستيقظ كما لم يستيقظ فى حياته من قبل .. سعيدا هادئا كأنه طفل يرقد فى سرير من الورد تأرجحه يد ناعمة بين السماء والارض ، وتمنى أن يقضى بقية عمره هكذا .. راقدا على ظهره بين وسائد الريش ، وعيناه معلقتان بعينيها وأنفاسها تكسو وجهه ، وخصلات شعرها تدغدغ أنفه

ونسى انه قرر أن يكرهها .. وخيل اليه أن القصة التى كتبها

بدات خيوطها تتصل من جديد ، وأنها عادت كما صورها .. رقيقة ضعيفة تؤمن بالحب والفن

***

ومد ذراعيه يجذبها نحوه ، حتى اسندت رأسها على صدره.. وكانت صامتة ، وقد انفرجت شفتاها عن آهة مكتومة واخذ صدرها البكر الناضج يهتز فوق دقات قلبها ويلامس صدره العارى فى قوة ويضغط عليه فى نشوة وكأن الصدرين يحاولان ان يتلاشى أحدهما فى الآخر .. وتسلل بأصابعه المنتشية بخياله يمر بها بين خصلات شعرها ، ويمسح بها وجهها الذى الهبته دماء الشباب .. وكان يخطو سريعا نحو السحاب ، وينتقل فى لهفة الى حلمه الجميل عندما قفزت من فوق صدره بغتة ، وصاحت فى صوت مزعج :

ــ قم أيها الكسول .. لقد كاد اليوم أن يضيع منى .. دعنا نذهب الى الشاطىء !

واحس بخياله يذبح وبأحلامه تتساقط محطمة تحت قدميها ، وقال فى صوت يائس :

ــ دعينا نظل هنا .. انى أريد أن التقى بك .. اريد ان التقى بروحك وبقلبك .. دعينى أحكى لك عن نفسى وعن أيامى .. دعينى أقص عليك همومى ومتاعبى .. ثم اسمعينى قصصك ونبضات خواطرك .. انى الى الآن رايتك ولم التق بك !!

وصاحت فى قسوة :

ــ لا تكن فيلسوفا .. اننا لم نأت الى كابرى لنقضى اليوم بين أربع جدران ، ثم انى أريد أن القى بنفسى تحت أشعة الشمس لأكتسب اللون الاسمر .. انى جميلة عندما أصبح سمراء .. قم أيها الكسول ..

وجذبته من فوق الفراش ..

وكان يستطيع أن يدعها تذهب بمفردها ما دامت لا تريد أن تبقى معه .. وكان يستطيع أن يطردها أو أن يصفعها وهى تخيب آماله .. ولكنه لم يفعل ، بل قام وارتدى ثيابه ، وقبل أن يغادر الغرفة قالت :

ــ نسيت أن أقول لك .. لقد سافرت العائلة هذا الصباح الى روما .. هانز ، وجان ، والعمة لوتى .. وقررت انا ان ابقى معك هنا .. اليس هذا ما يسرك ؟ انك لن تضطر الى أن تدفع لهم جميعا بعد الآن .. كما انى اصبحت لك وحدك ، ولن يزاحمك أحد فى !! ..

***

واخرجت من حقيبتها عشرة آلاف ليرة ــ اى حوالى سبعة جنيهات ــ واستطردت قائلة :

ــ خذ .. هذا كل ما معى .. وعليك انت ان تدفع الباقى !

وازاح يدها بما فيها من أوراق مالية ، وقال فى ترفع :

ــ احتفظى بها ، وسأدفع ما أريد ، وعليك انت أن تدبرى امرك ..

واعادت الاوراق المالية الى حقيبتها دون أن تعلق بشىء ، ثم وضعت ذراعها فى ذراعه واتجهت نحو باب الخروج ، وعندما مرا ببهو الفندق التقيا بالفتاة الامريكية : جينى .. وبيدها كتاب ووقفا اليها ليلقيا اليها بتحية الصباح ، وازدادت تشاركى التصاقا به بطريقة مفتعلة وقحة وقالت فى دلال مصطنع :

ــ الا تدرين ؟ لقد انتقلت الى هذا الفندق .. هكذا اراد هذا الطفل الكبير الذى يريد كل شىء ليحطمه !

ونظرت اليه بابتسامة مرسومة وقالت :

ــ اليس كذلك ؟ ! ..

ولم يجب بشىء ، ولم تجب جينى ، وانما نظرت اليه نظرة

رثاء ممزوجة بالسخرية ، ثم اخذت تنقـل عينيها بين الكتاب وبينهما اشارة الى انها تريد انهاء الحديث ..

واحس انه يكاد يذوب خجلا من رجولته التى تستهين بها هذه الراقصة الى هذا الحد ، ومن جينى التى لم يستطع ان يكسب احترامها ..

***

ونظر اليها ــ الى جينى ــ بعينين معلقتين زائفتين وكأنه يعتذر لها ويستغيث بها أن تنشله من ورطته ، ولكنها لم تأبه لنظرته ، وعادت تنقل عينيها بين الكتاب وبينهما دون أن تنطق بحرف ، فقال وكلماته تتعثر بين شفتيه :

ــ اننا ذاهبان الى الشاطىء .. الا تأتين معنا ؟!

ونظرت اليه نظرة عتاب وكأنها تذكره بما حدث فى الأمس وقالت فى لهجة حازمة :

ــ شكرا ان لدى كتابا ، وعلى أن أكتب بعض الرسائل !

وغادرا الفندق واتجها الى الشاطىء ، وهو يسأل نفسه : لماذا لم يختر لنفسه الفتاة الامريكية ؟ .. لقد كانت كفيلة بأن تريحه ، وان تحمل عنه همومه ، وأن تشفق على وحدته ، وأن ترفه عن شبابه المتعب .. ولكنه هكذا دائما يفضل طريق الشوك ويضع الصخور بيديه تحت قدميه ، ويبحث عن المتاعب ويعشق الشخصيات المعقدة ، وقد كانت جينى فتاة بسيطة ، صريحة فى عواطفها كالكتاب المفتوح ، فلم يكن فيها ما يجرى وراءه ، ولا ما يثير فضوله ، وكان يكفيه أن يقرأ السطر الاول من قصتها حتى يعرف نهايتها .. أما هذه الفتاة التى بجانبه ، فهو الى الآن لايعرفها ، ولايجد لشخصيتها مفتاحا يصل به الىحقيقتها..

انها أحيانا راقصة تتاجر بابتساماتها ونظرات عينيها ، وأحيـانا فتاة طيبة ساذجة ، وأحيانا تثير حبه ، وأحيانا تثير شهواته ،

وأحيانا يشفق عليها ، وأحيانا يحقد عليها ويكرهها الى حد أن يود لو خنقها واستراح وأراح العالم منها ..

وأمضى فى صحبتها يوما قاسيا ، كانت دقائقه وثوانيه تنغرز فى اعصابه كوخز الابر ..

***

وكانت أيامه معها جميعها قاسية .. فهى انانية الى أبعد حدود الأنانية ــ أو هكذا كانت تبدو ــ لا تفعل الا ما تريد . ولا تسأله الا عما تشتهيه ، ولا تتذكره الا ليدفع ثمن شيء تشربه أو تأكله..

وكان كل ما تحرص عليه هو الا تتركه هادئا . فهى تغيظه احيانا الى حد أن يسبها ويشتمها ، وتضحكه أحيـانا لتعـود فتغيظه ثانية ، ثم كانت تتبع عينيه من طرف خفى حتى اذا لمحته ينظر الى فتاة اخرى ولو نظرة عابرة وقفت أمام عينيه ، فاذا ما حاول أن يستغل غيرتها ليثير عاطفتها عادت باردة كالثلج !!

كان هذا هو حالهما كل يوم وجزءا كبيرا من كل ليل .. فاذا ما عادا الى الفندق تغير الحال ..

كانا يعودان عادة فى الساعة الثانية صباحا ، وكانا يفترقان كل الى حجرته ريثما يبدل كل منهما ملابسه ، ثم كانت تأتى اليه فى حجرته مرتدية « بيجاما » حريرية بيضاء على اللحم ، يكاد ينزلق منها نهداها .. ثم تخرج الى الشرفة لتستلقى على مقعد طويل من مقاعد الشاطىء وتغمض عينيها فى دعة وهدوء وكأنهـا تستريح من عمل شاق ، وقد كانت تعمل كل يوم عملا شـاقا فعلا ، عمل راقصة أو فتاة من فتيات الليل تحرص على ان تبقى رجلها داخل شباكها حتى لا يفلت منها .. وكان هو هذا الرجل داخل الشباك ! ..

وكانت فى هذه اللحظة التى تستلقى بجانبه فى الشرفة ينتهى عملها الشاق ، لأنها تكون قد اطمأنت الى انها كسبته يوما آخر ،

وانه لا يزال محتفظا بها بجانبـه ، فتلقى عن كتفيهـا شخصية الراقصة وتبدو امراة طيبة رائعة ، تتحدث حديثا عاقلا ممتعا ، وتستمع اليه والىهمومه استماعا مشجعا مهذبا . وكان حديثهما فى هذه اللحظات دائما حديثا عذبا مثيرا ينسى فيه التعب الذى لحقه منها خلال يومه ويتمنى أن يدوم العمر كله ، مكتفيا منها به ، ولا شيء اكثر من هذا الحديث العذب المثير ..

ولكنها كانت قبل ان تنصرف عنه تحرص دائما على ان تثير اعصابه وان تمنحه شفتيها حتى ترتفع الدماء الى رأسه ، ثم تنفلت منه بجسدها وتهرب الى حجرتها وتتركه يخبط الحائط بقبضة يده ويسكب الماء البارد على وجهه حتى يعود اليه هدوؤه فينام ..

***

وكانت تفعل هذا متعمدة ، فقد كانت تريد أن تبقى باب الأمل مفتوحا دائما أمام عينيه حتى تحتفظ به لليوم التالى .. الأمل فى أن ينالها وفى أن تمنحه جسدها يوما ما ..

وفى احدى هذه الليالى اخذ يقنعها بأنه لا يريد منهـا الا ان يكونا صديقين .. مجرد صداقة بريئة من الحب وبريئة من نداء الجنس ، واقترح عليها أن يسجلا هذه الصداقة فى عقد يوقعه كل منهما ، وقام الى منضدته فعلا واخذ يكتب عقدا بالشروط التالية :

١ ــ يقرر الطرفان الموقعان على هذا العقد ان العلاقة بينهما لا تتعدى مجرد الصداقة البريئة !

٢ ــ القبلات المتبادلة بين الطرفين لا تكون الا فى المناسبات الضرورية ، ولا تكون الا فوق الرأس ، أو على الأكثـر فوق الجبين ! ..

٣ ــ ممنوع منعا قطعيـا ان يتبادل الطـرفان قبلات فوق الشفاه ! ..

٤ ــ لا تستمر فترة أى قبلة اكثر من ثلاثين ثانية فى أىمناسبة من المناسبات !

٥ ــ اذا اخل احد الطرفين بشروط هذا العقد يصبح عبـدا للطرف الاخر طبقا لقواعد القانون الرومانى القديم ويصبح من حق الطرف الآخر ان يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيفما يشـاء !! ..

٦ ــ مدة العقد ثلاث سنوات !

ووقع كل منهما بامضائه وهما يضحكان . ولكن ما كادت تشارلى تنتهى من توقيعها حتى اقتربت منه فى حياء مصطنع ، والصقت صدرها المنزلق من بين طيات البيجاما البيضاء ، بصدره العارى .. ومدت ذراعيها واحاطت بهما عنقه واخذت تعبث بأصابعها فى تلافيف أذنيـه .. ثم رفعت شـفتيها المكتنزتين الناضجتين وهمست بهما بين شفتيه :

ــ انى أحس انه انقضى من عمرى ثلاث سنوات !!

ورفع ذراعيه ليحيط بهما خصرها وليمزق ثوبها عن بشرتها الشفافة المصطبغة بأوراق الورد ، ولكنه عاد بذراعيه الى جنبيه ، وقال وأنفاسه الساخنة تكاد تذيب كلماته :

ــ تذكرى العقد !!

ــ اى عقد ؟ ! ..

ــ انك ستصيرين لى عبدة .. وسأصنع بك ما اشاء !

ــ انى عبدة .. اصنع ما تشاء !!

وارتفعت ذراعاه من جديد ، وضمها اليه فى قوة وقسوة حتى أصبحا كتلة واحدة من اللحم الساخن ، وطاف بأنفاسه حول وجهها وهو مغمض العينـين حتى عثر بشفتيها فانقض عليهما يسكب بينهما اياما من شبابه قضاها فى خيال محروم .. وقضى فوق شفتيها وقتا طال أو قصر ، ثم أحس بها تنفلت ــ كعادتها ــ من بين ذراعيه ، وتجرى نحو الباب ، وسمعها فى ضجة اعصابه تقول ضاحكة :

ــ لا تنس ان تمزق العقد ! ..

ولحق بها فى لهفة مجنونة ، وأمسك بذراعها ، ثم رفع كفه الأخرى وهوى بها على صدغها فى عنف فظيع حتى خيل اليه انه أطاح براسها من فوق عنقها

وساد بينهما صمت حاد وكلاهما تتلاحق ضربات قلبه

لم تبك ..
ولم تصرخ ..

ولم تحاول ان ترد الصفعة ..

وقالت فى هدوء ، وهى تقاوم انفجارا هائلا :

ـ لا تضربنى مرة ثانية على وجهى .. فلو ابحت صدغى لكل الرجال أمثالك لتشوهتا .. اضربنى هنا ان أردت .. ان كان يجب أن تضربنى حتى تغطى عجزك عن مقاومة اعصابك وخجلك من نفسك وأنت تنهار هكذا كلما تحسست جسدى !

وادارت له ظهرها وهى تشير الى المكان الذى يجب أن يضربها فيه ، كلما أراد ضربها ..

ولم يضربها ..

ولم يرد على كلمة من كلماتها ..

وادار لها ظهره وخرج الى الشرفة مطأطىء الراس ، وسمعها تغلق الباب وراءها ، فرفع رأسه وملأ رئتيه بهواء الفجر ، وأدار عينيه فى جمال الله المنبسط حوله ، وأحس برغبة ملحة فى البكاء ولكنه لم يبك ، وانما سد أذنيه بأصبعيه عندما سمع الاصداء تتردد بين قمم الجزيرة وتصرخ فى وجهه : انت عاجز .. انت ضعيف .. أنت منهار ..

نعم انه عاجز وضعيف ومنهار .. ولكن ما ذنبه هو ؟ انه ذنبها هى !! ..

متى يتخلص منها ؟ ! ..

ورفع وجهه الى السماء وكأنه يقسم أمام الله أن يتخلص منها ..



٥

.. كيف يتخلص منها ؟!

لم يستطع ان يضع خطة مرسومة ، فقد نام ليلته ــ او لم ينم ــ وهو مضطرب الفكر ، مجروح القلب ، يكاد يخنق انفاسه الغيظ منها ..

ووجد نفسه فى اليوم التالى باردا ، ساكنا ، برود من زايلته الحمى وبدأ يتصبب جسده عرقا ينم عن ضعفه وانهيار كيانه ..

وجاءت الى غرفته ــ كعادتها كل صباح ــ مرتدية ثياب الشاطىء ، وانحنت على وجنتيه تقبله قبلة خاطفة وهى تحييه تحية الصباح ، فلم يرد قبلتها ، وغمغم ببعض كلمات غير مفهومة يرد بها تحيتها ..

وبدات تتحدث عن برنامج اليوم .. مرحة .. ضاحكة ، وكأنها عروس تستقبل اليوم الاول من شهر العسل ..

ولم يعلق على حديثها بشىء ، ولم يجادلها فى البرنامج الذى أعدته لنزهات اليوم ، اذ ظل صامتا ، لاينظر اليها ، ولايستمع.. وقام وارتدى ثيابه وتقدمها نحو الباب ..

ولاحظت صمته ووجومه ، فابتسمت ابتسامة ضعيفة حيل اليه انها ابتسامة هزؤ وسخرية وخيل اليه انها كانت واثقة من نفسها الى حد كبير ، واثقة انها مهما ادعى الوجوم والغضب .. فستحتفظ به دائما وستفعل به ما تشاء

وسارت بجانبه ، وهى تعلق على ما تراه فى واجهات الحوانيت تعليقات ساخرة ، وترمى كل من يمر بها بنكتة لاذعة .. وكان من عادته أن يضحك على هذه التعليقات والنكت ، ولكنه فى هـذا اليوم لم يضحك ، وكانت كلما وجهت اليه كلاما رد عليه بهزة من راسه أو بفمفمة ليس لها معنى ..

***

وجلسا يتناولان القهوة فى الميدان الصغير الذى يتوسط الجزيرة .. وكانت لا تزال تتحدث وتروى قصصا ونوادر مما يحدث مثله فى حياة الراقصات ، فلم يلق لها بالا وتشاغل عنها بالنظر الى فتيات الجزيرة الجميلات فى ثيابهن الجريئة المثيرة ..

وفجأة قام بدون ان يستأذنها واتجه الى موقف سيارات الاجرة ، فلحقت به فى لهفة ، بعد ان جمعت حوائجها من على المائدة فى ارتباك ..

وقال لسائق السيارة ، وقد ركبت بجانبه دون أن يدعوها :

ـ الى « مارينا بيكولو »

وقالت :

ـ ولكنى كنت اريد ان نقضى اليوم فى « آنا كابرى » ..

ولم يرد عليها ، واتجهت السيارة فى طريق مارينا بيكولو ..

وكفت عن الحديث طول الطريق ، وانما ظلت محتفظة بهذه الابتسامة التى كان يخيل اليه انها ابتسامة هزؤ وسخرية ..

ووصلا الى الشاطىء ، وأبدلا ثيابهما واصبحا فى ثياب الاستحمام ، فلم تحاول أن تعرض عليه جسدها المثير وهى فى « المايوه البكينى » كما كانت تفعل دائما ، ولم تستلق بجانبه ولم تحادثه اطلاقا ، انما تركته يختار مكانا له ، ثم انصرفت عنه الى مكان آخر ، وانضمت الى فريق من الناس لا يعرفهم ، ثم لمحها بعد دقائق تحادث رجلا أمريكيا يدعونه « جو » وكانت تعلم انه

يكره هذا الرجل ، ويكره اعتداده بنفسه ، وتهافت الفتيات عليه .. وكان حديثها معه كفيلا بأن يثيره وان يغضبه ، وان يجعله يتقدم لينتزعها منه .. ولكنه لم يثر ، ولم يغضب ، وان يتقدم وانما ظل باردا ساكنا واكتفى بأن جذب قبعته فوق عينيه حتى لا يرى ..

***

ولمحها مرة ثانيـة وقد نزلت مع هـذا الأمريكى الى حوض السباحة ثم لمحها والرجل يرفعها فوق كتفيه لتقفز من فوقهما الى الماء ، وكان يتعمد ان يلمحها دون ان تلمحه ، ولكن نظراتهما التقت مرة او اثنتين وكانت هى الاخرى تحاول ان تراقبه دون أن يشعر بمراقبتها

وجاءت مع صديقها الامريكى الى حافة الحوض القريبة منه ، وأخذا يتضاحكان ويلعبان فى الماء ، فلم يتحرك ولم يبد انه يشعر بهما ، وكانت اعصابه قد بدأت تخونه وتتخلى عنه ، ولكنه ضغط عليها ، حتى ضبطها ووضعها تحت ارادته ..

ثم شعر بها تقذفه برذاذ الماء وسمع صوتها يصيح فيه :

ـ هاللو .. ألا تزال من الأحياء !!

ولم يرد عليها ، واعتدل فى رقدته ، فنام على بطنه حتى لا يراهما ..

وانصرفا بعيدا عنه ..

وقام هو بهدوء ، ودخل حيث بدل ملابسه واتجه نحو باب الخروج ..

وعند الباب وجدها فى انتظاره مرتدية ثيابها كاملة ، وكان يبدو انها ارتدتها فى عجلة ، فلم تمهل نفسها حتى تجفف شعرها ، فكانت خصلات منه ملتصقة بصفحة وجهها ، كأوراق الخريف الصفراء وقد التصقت بفرع نخيل فى يوم مطير !!

وبقى متمسكا بصمته وسارت بجانبه عدة خطوات ، ثم قالت فى هدوء :

ـ هل تعتقد انك تستطيع ان تملكنى بهذا الاسلوب .. انه غباء منك ان تعتقد ذلك ؟!

ولم يرد ، فعادت تقول :

ـ لا تكن احمق ، ولا تكلف أعصابك اكثر مما تتحمل .. ثم حرام ان تضيع علينا يوما كاملا فى جنازة وهمية !!

***

وكاد يفقد اعصابه ، ويصرخ ، ولكنه استطاع ـ بجهود عنيفة ـ ان يبقى هادئا ، وقال فى هدوء :

ـ هذا حالى اليوم ، ان كان يعجبك ؟!

وقالت وكأنها تشفق عليه :

ـ جرب ان تصرخ .. انظر الى واشتمنى .. قل انى فتاة انانية قذرة .. قل انى راقصة لا قلب لها ولا شعور ، فربما اراحك هذا الصراخ ، فتعود كما كنت ..

ولم يصرخ ، ولم يرد عليها ، وضغط على شفتيه وكأنه كان يخاف أن ينفلت من بينهما لسانه

وهزت كتفيها كمن لا حيلة له ، واكملت طريقها معه صامتة منكسة الراس ، وشعر فى هذه اللحظة انه بدأ ينتصر ، بل شعر بلذة اجرامية فى ان يعذبها بهذا الصمت البارد ، وكأنه يشويها على نار هادئة ويتلذذ برائحة شوائها ..

ولو انها تركته وانصرفت عنه فى هذه اللحظة ، فربما كان قد تبعها وعاد بها معتذرا مستغفرا ، ولكنها لم تتركه ولم تنصرف عنه بل تبعته كالكلب الوفى ، فبدأ يستعيد ثقته بنفسه ، وبدأت اعصابه تهدأ منتشية بالأمل فى نصر قريب ، وبدأت الابتسامة التى زايلت شفتيها وهى تسير بجانبه منكسة الراس تنتقل الى

شفتيه وهو يسير براس مرفوع وصدر منفوخ ..

وعندما وصلا الى الفندق ليبدلا ثيابهما مرة اخرى استعدادا لسهرة المساء ، قالت له فى صوت مستسلم ، قبل ان يفترقا كل الى حجرته :

ـ انتظر فى غرفتك !!

***

واختفت فى حجرتها قبل أن تسمع جوابه ، وكانت لا تزال واثقة من انه سينتظر كما طلبت منه ان ينتظر ..

ولم ينتظرها فى غرفته ، ولكنه ايضا لم يغادر الفندق ، بل بقى منتظرا فى البهو الكبير بحيث يرى ـ ويراه ـ كل من يهم بالخروج من الباب الخارجى

ورآها بعد ساعة تنزل الدرج فى سرعة ملهوفة ، وكأنها تريد أن تلحق بشىء ضاع منها ، وما ان رأته حتى هدأت من خطواتها واصلحت من مشيتها ، وكتمت ضربات صدرها الخافق ، وتقدمت اليه ، وقالت فى صوت حاولت أن تجعله ساخرا :

ـ على كل حال ، فانك لا تزال منتظرا !!

ولم يرد ..

كانت الرغبة الآثمة فى ان يعذبها ويشويها على نار صمته البارد ، تتملك منه وتستزيده ..

وخرجا سويا ، حيث التقيا بجمع من الاصدقاء .. فتيات وفتيان من مختلف الجنسيات ، ثم توجهوا جميعا الى فندق « سيزار اغسطس » حيث مدت لهم مائدة كبيرة ارتفعت فوقها اكثر من زجاجة ويسكى

وكانوا كلهم يعرفون ان هذه الفتاة له وانه يحبها وهى تحبه ، وكانوا يتعمدون ان يتركوها له ، وان يجلسوهما احدهما بجانب الآخر ، ولكنه فى هذه الليلة تعمد أن يجلس بجانب فتاة أخرى ،

ويدعها تجلس بجانب فتى آخر ، واخذ يسبغ اهتمامه كله على هذه الاخرى ، وهى بدورها كانت تدعى الاهتمام بالفتيان الآخرين ..

***

ولاحظ انها تشرب كثيرا ـ اكثر من عادتها ـ وانها كانت تتحدث كثيرا وتلقى كثيرا من السخافات التى يضحك لها الجميع ، ما عداه ، فقد كان يتعمد الا يضحك ، وكان يتعمد أن يجذب الفتاة التى بجانبه الى حديث طويل هادىء . لا شك انه كان حديثا سخيفا ، لا تتحمله الفتاة الا لرقتها ورغبتها فى مجاملته ..

وفجأة قذفته تشارلى بحبة زيتون ، فالتفت اليها ، وكانت الخمر واضحة على وجهها . كانت عيناها تترنحان ، وشفتاها تترنحان ، وخصلة من شعرها تتأرجح أمام وجهها كأنها سكير يحاول أن يمسك بعمود النور !!

وقالت بصوت مترنح :

ـ قم ، وارقص معى !!

وقامت من على مقعدها فعلا لتستعد للرقص ، ولكنه لم يقم من على مقعده وغمغم قائلا :

ـ لا اريد الرقص ؟!

واكفهر وجهها واحمر غضبا حتى خيل اليه أن النار قد اندلعت فيه ..

واحس باللذة الآثمة تسرى فى صدره .. لقد بدأ الشواء ينضج !! ..

وازاحت مقعدها بقدمها وجذبت الشاب الذى بجانبها الى حلقة الرقص ، واخذت تراقصه رقصا ماجنا وتضحك خلال الرقص ضحكات مخمورة وتقبله قبلات كأنها صفعات تعنيه بها ..

ثم عادت الى المائدة ، وقبل أن تجلس رفعت كأسها الى شفتيها وعبت ما فيها ثم قذفت بها الى الأرض محطمة ..

وساد الوجوم لحظة تبادل فيها كل من الجالسين نظرة الى الآخر ، ثم عادوا جميعا يضحكون ويصرخون دون أن يعلق احدهم بكلمة على الكأس المحطمة ، سوى صديق ايطالى كان يجلس بجانبه مال على اذنه هامسا وهو يغمز بعينيه مشيرا الى تشارلى :

ـ ان لم يكن هذا هو الحب .. فماذا يكون ؟!

وابتسم ابتسامة مسكينة واجابه فى استخفاف :

ـ انك واهم ليس للحب حساب بيننا !!

***

وكانت تشارلى قد امسكت بكأس اخرى ، وبدات تغنى وهى واقفة على قدميها ، اغنية فرنسية شعبية يردد الجميع مقاطعها ..

وكانت تغنى فى صوت مرتفع مذبوح كأنه الصراخ ، ثم اعتلت مقعدا وقفت فوقه واخذت تسكب كأسها فوق راس الفتى الذى يجاورها وهى تضحك ضحكات هستيرية مجنونة ..

ولم يعد يحتمل ..

وخشى ان يغلبه قلبه الرقيق ، وأن تثور شفقته ، فيحملها بين ذراعيه ويعود بها الى الفندق ليدارى هوسها ، ويضع حدا لهذه التصرفات المخمورة ..

ولكن رغبته الآثمة فى أن يعذبها باهماله لها ، ويشم رائحة شوائها وهو يصليها بصمته البارد .. هذه الرغبة كانت لا تزال تتملك نفسه ، وتنفخ فى صدره .. فقام بهدوء وغادر المائدة حيث وقف بجانب « البار » مديرا لها ظهره ..

وظل يسمع ضحكاتها المجنونة وصراخ القوم من حولها برهة . ثم سكت الضحك والصراخ ، واذا هو يحس بها واقفة بجانبه

ترنح وهى تستند على مائدة « البار » بذراعها حتى لا تقع على الأرض ، ونظرت اليه نظرة لا تستقر ، وقالت فى صوت متعب :

ـ انى أريد أن أعود !!

وقال وهو يرفع كأسه الى شفتيه ، ويرخى عنها عينيه :

ـ انى سأبقى هنا !!

ـ كفانا .. انى متعبة !!

ـ لك أن تعودى مع بقية الاصدقاء !

ـ لا تثرنى .. انى استطيع أن أكون امراة خطرة !

***

ولم يرد عليها ، واكتفى بأن أدار لها ظهره منشغلا عنها بكأسه .. وفى حركة خاطفة جذبت من فوق مائدة البار زجاجة كبيرة من زجاجات « السيفون » ووجهتها الى وجهه وضغطت على فوهتها المعدنية فانبثق منها الماء فى عينيه وبلل راسه وانسكب على ثيابه ، بينما كانت تضحك ضحكاتها الهستيرية المجنونة ..

وظل صامتا لا يتحرك ، ولا يحاول أن يدفع الماء عن نفسه ، أو يزيحها من جانبه .. ولم يكن صمته وبروده عن عمد ، ولكنه كان من الصدمة المباغتة .. وربما خشى ساعتها أن يدفعها عنه فتحطم الزجاجة الكبيرة على راسه فتقتله وهى مخمورة ..

وجاء أصدقاؤه فأبعدوها عنه ونزعوا الزجاجة من يدها ، وصحبوها معهم حيث عادوا بها الى الفندق ، وهى تصيح فيهم :

ـ دعونى أقتل هذا الفأر الكبير ..

وتركوه وحيدا بجانب « البار » يسائل نفسه : لم كل هذا ؟!

انه كان يستطيع أن يصرفها عنه باحسان .. كان يستطيع أن يقول لها فى بساطة وفى صراحة ، انه لم يعد يريدها ، وانها اتعبته ، وأتعبت أيامه ، وانه لن يتكفل بها بعد اليوم ولن يدفع

لها حساب الفندق ، وان عليها أن تغادر الجزيرة ، أو تبحث لها عن صديق آخر ..

وكانت ستضطر أن تخضع وأن تتركه وتريح أعصابه ، فهو ليس مسئولا عنها ، وليس هناك ما يربطه بها سوى هذا الوهم الذى قام بينهما واقنعهما بأن كلا منهما فى حاجة الى الآخر ليقضى معه أيام أجازته ..

***

ولكنه اتبع الطريق الآخر وفضل ان يثيرها ، وان يعذبها بصمته واهماله يوما كاملا .. لماذا ؟ الا يزال يريد الاحتفاظ بها بجانبه ؟! أم انه يحاول الانتقام لهذه السويعات التى تسلطت فيها على جسده ، واثارت غرائزه ثم تركته دون ان تطفىء النار المدنسة المندلعة فى اعصابه ؟! أم هى غريزة حيازة الشىء ، تغلبت عليه ، فهو يريد ان يحوزها روحا وجسدا ليعود الى بلده بذكريات نصر تافه جديد ؟!

وسار على قدميه ، يدب فى الظلام ، ويعرض رأسه للهواء البارد ليهدىء من ثورة أفكاره ..

ووصل الى الفندق وقد أقنع نفسه أنه مجرم ، وأن شيطانا آثما عبث بروحه فدفعه الى القسوة على هذه الفتاة وهو لم يقس ابدا فى حياته على أى فتاة ..

وصعد السلم ، ثم تمهل قليلا .. فقد كان يريد أن يذهب الى حجرتها ليعتذر لها ، ولكنه وجد الاعتذار ـ فى مثل هذه الساعة ـ قد يثيرها مرة ثانية ، أو ربما كانت الخمر لا تزال متسلطة على رأسها فلا تفهم للاعتذار معنى ..

وسار الى غرفته فى خطى بطيئة ، ودخلها منكس الرأس وأضاء النور وبدأ يخلع ملابسه ثم اتجه الى الفراش عارى الصدر

كما اعتاد ان ينام دائما ، وازاح الناموسية السميكة ــ وكل سرير فى كابرى تنسدل عليه ناموســـية ــ فاذا به يجدها أمامه ·· فى فراشه ! ..

***

كانت فى بيجامتها الحريرية البيضاء التى ينزلق منها نهداها وشعرها الذهبى الطويل ينتشر على الوسادة حول راسها الصغير كأنه أنغام ينظمها صاحبها ولم يعزفها بعد ..

وكان يبدو ان الخمر قد تبخرت من جوفها ، وتركت على وجهها صفرة مريضة ..

ولم تكن نائمة ،بل كانت مفتحة العينين فى اصرار عنيد كمن يعانى ألما مكبوتا ..

ولم تكن تبتسم ، بل كان على شفتيها غضبة تحاول ان تنطلق فلا تقوى على الانطلاق

وطالت وقفته وطال صـــــمته ، الى أن قالت فى صمت هامس كأنه قطرات من الماء ذابت عن لوح من الثلج :

ــ لماذا تقف هكذا ؟ ·· تقدم ·· انى فى فراشك ؟! ··

ولم يرد ، فعادت تقول :

ــ ما الذى يغضبك الآن ؟ .. لقد قررت الاستسلام .. أليس هذا ما كنت تريده ؟ .. هاك جسدى ..

ونزعت سترة البيجاما عن صـــدرها بأصابع عصبية حتى كادت تمزقها ..

ونظر الى جسدها نظرات تائهة ، وساءل نفســه :

ــ هل هو حقا يريدها ؟ يريد هذا الجسد ؟ انه لم يحاول ابدا أن يقترب من جسدها ·· وانما كانت هى تغريه به ، وكانت هى التى تثيره ، وتفتح له أبوابا لا تلبث ان تغلقها فى وجهه كما تفعل

باقى الراقصات ، ولولا هذا لاكتفى منها بصحبتها الشـقية وحديثها التافه الذى اعتاد أن ينسى فيه همومه ..

وتحركت شفتاه قائلا :

ــ لا تكونى سخيفة .. انك لا تعنين ما تقولين !

ــ انى اعنيه فقد قررت ان أمنحك أتفه ما أملك ، ما دام اعز ما أملك لم يكفك !!

وصاحت فيه بصوتها الضعيف مرة ثانية :

ــ تقدم .. انى لك .. تعال واجن ثمرة صبرك الطويل !!

ــ انك لا تريدين هذا !!

ــ يكفى انك تريد !

ــ لست حيوانا !

ــ لقد اقنعتنى اليوم انك حيوان !!

ــ لقد كدت اذهب الى غرفتك لأعتذر لك !

ــ لا تعتذر فانى راضية بك كما انت .. ولا فائدة من الاعتذار، فقد قررت اناشاركك الفراش .. لقد نجحت خطتك.. الا تشعر بنشوة النصر ؟! ··

***

وجلس على حافة الفراش وقد وضع راسه بين يديه ، لايدرى ما يقول ولا ما يفعل

واذا بها ترفع راسها المثقل المصدع عن الوسادة ، وتميـل بصدرها العارى ، وتلصق وجهها المتعب بوجهه المكفهر ، ثم تهمس فى اعياء :

ــ نسيت .. يجب ان اقبلك اولا !!

والصقت شفتين باردتين بشفتيه ، وحاولت أن تحركهما لتعصر منه قبلة ، ففلبها اعياؤها ..

وازاح شفتيها فى رفق ، واحاطها بذراعيه ، واخذ يربت على كتفيها فى حنان وقلبه يكاد ينخلع شفقة عليها ، وهمس فى صوت يكاد يكون نشيجا :

ـ لا تعذبى نفسك .. يكفيك ما انت فيه من اعياء !!

ـ انى لا أريد أن أفقدك ! ..

ـ سنفترق يوما .. هكذا كنت تقولين دائما .. فلنفترق اصدقاء .. مجرد اصدقاء !

ـ نعم .. سنفترق يوما !

ـ ليكن غدا ! ..

وأزاحت نفسها من على صدره وصاحت فى هلع :

ـ غدا ؟! ..

ولم يرد ، واحنى راسه وكأنه يصر على الغد ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة ، وقالت فى صوت واع :

ـ لقد كنت أنتظر دائما هذا الغد .. ولكنى لم اكن انتظر ان يأتى سريعا .. ان من حقك وحدك ان تحدد موعد الفراق .. بل من حق كل رجل التقى به أن يحدد موعد فراقه لى ، وقد كنت اتعمد دائما ان افترق عنهم قبل ان يفترقوا عنى .. ولكنك سبقتنى !! ..

وسكتت برهة ، ثم استطردت :

ـ انى أستطيع ان ابقى فى الجزيرة .. هنا اكثر من رجل مستعد أن يتكفل بى ، بل ان « جو » .. هذا الرجل الامريكى .. دعانى هذا الصباح للاقامة معه .. ولكنى لن اقبل .. سأسافر الى روما لالحق بعائلتى .. فهذا اكرم لصداقتنا .. انها مجرد صداقة .. أليس كذلك ؟! ..

وأسقطت رأسها فوق يديها واخذت تشد بأصابعها فى خصلات

شعرها المنسدل فوق وجهها ..

وخيل اليه انها تبكى .. ولكنها عندما رفعت اليه وجهها راى عينيها جامدتين لا حياة فيهما ولا نور .. ولا دموع !!

انها لا تبكى ابدا .. وقد قالت له يوما انها لن تبكى لانها تعلمت كيف تقسو على نفسها !

وتركت راسها يسقط على الوسادة من جديد ، وقالت فى صوت لا رنين فيه ولا معنى :

ـ هل تسمح أن انام فى فراشك ؟ .. انى متعبة لدرجة انى لن اقوى على الذهاب الى غرفتى .. لا تنس أن توقظنى عندما يأتى الغد ! ..

واسدل فوقها الناموسية ، واحس انه يسدل ستارا على ماض بعيد ..

واطفأ النور ، كأنه يسكب الظلام على أيام حياته ..

وتركها تنام ، وذهب الى الشرفة حيث استلقى على مقعد طويل .. ولم ينم

***

واستيقظت فى صباح باكر ، وخرجت اليه فى الشرفة وهى تضم اطراف ثوبها على صدرها العارى ، وكان يبدو من صفرة وجهها وارتخاء عينيها انها لم تنم هى الأخرى ، وقالت فى صوت ضعيف من بين ابتسامة صامتة حزينة :

ـ هل أتى الغد ؟ ..

ووقف قبالتها ينظر اليها طويلا ، وشعر انه فى حاجة الى أن يضمها الى صدره ، ويبكى فوق راسها طويلا ، ولكنه تمالك وقال فى اصرار مهذب ، لم يخف مدى ما كان يلاقيه فى مقاومة نفسه :

ـ نعم .. اننا الغد !!

وسارت فى خطوات بطيئة الى حجرتها ، ولحق بها بعد ان ارتدى ثيابه فوجدها قد اعدت حقائبها ، ووقفت أمام المرآة تخفى بالطلاء صفرة وجهها . وقال وقد أسند ظهره الى الحائط حتى لا يترنح تحت ضربات قلبه :

ـ هل أعتذر ؟!

ـ لا .. من الأفضل لا ! ..

ولم يجد شيئا يقوله ، ولكنه كان يجب أن يقول شيئا :

ـ هل تكتبين لى ؟

وقالت دون أن تنظر اليه ، وهى تمر باصبع الاحمر فوق شفتيها :

ـ لم لا ؟ ..

***

واخرج ورقة وكتب عليها عنوانه فى مصر ، فمدت يدها والتقطتها بعدم اكتراث ، ووضعتها فى حقيبتها فى اهمال ..

ـ هل تريدين شيئا ؟

ـ لا ..

ـ نقود ؟

ـ معى عشرة آلاف ليرة التى تركتها لى .. وهى تكفى .. ولا تلح .. فلن أقبل شيئا

وسارا نحو الباخرة التى تغادر كابرى ، فى صمت حزين وكأنهما يشيعان جنازة .. جنازة ماذا ؟

هل هى جنازة حب ؟

جنازة صداقة ؟

جنازة مغامرة ؟

انه لا يدرى .. وهو الى الآن لا يدرى

وقبل أن تصعد الى الباخرة وقفا قبالة بعضهما ، وكل منهما لا يدرى ماذا يقول وماذا يفعل ؟! ..

وحاول ان يقبلها قبلة الوداع فصدته فى رفق ، ومدت له يدها وقالت وهى تغتصب من بين شفتيها ابتسامة :

ـ ان وداع الأصدقاء هكذا !!

وتركت يدها فى يده لحظة ، سحبتها منه وكأنها تسحب الحياة من قلبيهما ..

وخطت نحو الباخرة ..

وقبل أن تكمل خطوتين ، استدارت له ، وفتحت حقيبة يدها واخرجت الورقة التى كتب عليها عنوانه ، واخذت تمزقها فى هدوء ، وسمعها تقول :

ـ حتى هذا ، لا داعى له

***

وخيل اليه انه لمح الدموع فى عينيها قبل ان تختفى عن ناظريه وسار عائدا الى قلب الجزيرة قبل أن تغادر الباخرة الميناء ..

واحس بطنين حاد فى رأسه .. ماذا حدث فى هذه الايام ؟ ولماذا اصر على أن تفارقه ؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لو ابقاها معه ؟

انه لا يدرى شيئا .. بل انه لا يدرى اذا كان ما حدث يصلح ليكون قصة أم لا !

سيدة صالون



سيدة صالون

« هذه القصة واقعية .. وقد يعلم تفاصيلها كثيرون غيرى ، وهؤلاء ارجو منهم الا يفضحوا الأسماء الحقيقية ، والا يتحدثوا كثيرا عن وقائعها فى مجالسهم الخاصة .. وأرجوهم قبل كل شىء الا يحاول واحد منهم ان يترجم هذه الصفحات الى الزوج أو الزوجة ، فان من رحمة الاقدار على ، انهما لا يقرآن العربية

أما لماذا كتبت القصة ما دمت أخاف على أبطالها الى هذا الحد .. فان القلم دائما عذرا ، عندما ينطلق وراء موضوع شيق !! »



١

عزيزى احسان ..

هل أخاف منك ، أم اثق بك ؟!

انك تعلم الكثير عن حياتى الخاصة والعامة ، وهذا ما يخيفنى منك ، خصوصا بعد أن بدأت تغرم بجمع الوثائق والمستندات وتنشرها فى جريدتك !

ولكنى مع ذلك اثق بك ، فأنت طيب القلب رغم نزواتك بل أنت طفل ساذج رغم ما يبدو عليك من سمات الخطورة !

وانى أكتب اليك لكلا السببين : لخوفى منك ، ولثقتى بك ، فانى أريد أن أصحح لك بعض ما تعرفه عن حياتى الخاصة والعامة ، وأريد أن أشكر لك صديقك « اسماعيل » الذى اتخذ منك ملجأ وموضعا لسره ، حتى أكاد أومن بأنه كان يبلغك كل همسة تسرى بينه وبينى ، ويعدد لك كل قبلة تبادلناها فى هذه الفترات المتباعدة التى كنت فيها انسى نفسى لأذكره ، وكان ينسى نفسه ليذكرنى !

ولا بد انه قال لك كيف افترقنا أخيرا ، واكاد اجزم بانك أصدرت حكمك على بعد أن سمعت أقواله ، وقبل أن تسمع

اقوالى .. ولا بد انه كان حكما قاسيا دمغنى بالجحود ، وصب فوق راسى اللعنــة التى يطلقهــا الناس على كل زوجة تخون زوجها ، ثم بعد ذلك تخون عشيقها ..

وكل ما ارجوه قبل أن أبدأ قصتى ، هو أن تسحب حكمك هذا وترفع من فوق راسى اللعنة التى صببتها على ، واعتبر نفسك قاضيا استئنافيا من حق العدالة عليه أن يلغى حكمــا أصدرته محكمة الدرجة الاولى ، عندما يرى وجها لالغائه ..

***

ولأبدأ بنفسى اولا ..

انك تعلم أننا وفدنا الى مصر - زوجى وانا وولدانا - منــذ اربع سنوات ، وقد جئنا الى هذا البلد الكريم ، ونحن لا نملك شيئا ، ثم استطعنا فى خلال عامين أن نمتلك مليونا من الجنيهات أو يزيد ، مودعة فى مختلف بنوك العالم ..

وقد يكفيك هذا لتتهمنا - على الأقل - بالنصب والاحتيال . ولكن ثق أن كل قرش من هذه الجنيهات ، اشرف من ان يكون موضع شك ، ولكنكم - انتم المصريين - لا تؤمنون بأن اى انسان يســتطيع ان يكون صــاحب ملايين دون أن ينصب أو يحتال ولا تؤمنون بأن بلادكم هى منجم ذهب بكر .. لا يلزم لاســتغلاله سوى بعض الذكاء التجارى وبعض « التاكت » .. وزوجى يتمتع بنصيب كبير من الذكاء التجارى ، أما « التاكت » فقد كنت انا الكفيلة به دائما ..

ولأعد بك الى الوراء ثلاثة عشر عاما حتى تعلم لماذا جئنا الى مصر .. الى هذا المنجم البكر السخى !

كنت فى السادسة عشرة من عمرى ، من أسرة فرنسية متوسطة محافظة ، وكنا نقيم فى باريس .. واصبت أيامها بصدمة عنيفة

غيرت ما كنت أعد نفسى له ، فقد كنت أحب شابا فرنسيا من أصدقاء الأسرة وكنا قد تواعدنا على الزواج ، بل ان زواجنا كان أمرا مسلما به من كلا العائلتين . ولكنه خان العهد ، واختفى من باريس كلها عامين ليعود بعدها الى زيارتنا وفى يده زوجة من فتيات اللكسمبرج ..

وابت على كرامتى ان انهار ، فتجلدت ، واستقبلت حبيبى وزوجته وكأنه لم يكن حبيبى يوما ، ولم تكن هى المرأة التى سطت عليه .. ولكنى دفعت كثيرا فى سبيل هذه الساعة التى تجلدت فيها .. دفعت قلبى ، وأصبحت امرأة بلا قلب .. امرأة تستطيع أن تصفها بأنها « عملية » أو «واقعية» أو «استغلالية» ، فقد تعودت من يومها الا أبتسم الا لغرض ، ولا اجالس انسانا الا لأستفيد منه ، ولا أرفع كأسا الى شفتى الا لأحيى رجــلا احتاج اليه .. لقد أصبحت رأسا يعمل ويفكر ويضع الخطط ويسيطر على جسدى ، وعلى لفتات عينى ، وعلى كل ما أملكه كامرأة ..

***

الى أن قابلت زوجى ، وكان كلانا من الذكاء بحيث لم يحسب حسابا للحب بيننا .. انما تزوجته لأنى قدرت انه يستطيع ان يكون رجلا ناجحا ، وتزوجنى لأنه قدر انى استطيع ان اعينه فى طريق النجاح .. كان زواجا تجاريا أساسه تبادل المنافع

وكان زوجى فى هذه الايام يعمل فى الميدان التجارى سمسارا يقوم ببعض الصفقات الصغيرة ، وكان يطمع فى ان يجد اولا الشركاء ، ثم يقنعهم بالاشتراك فى راس المال

واخذت انا على عاتقى هذه المهمة .. وهى ليست بالمهمــة الهينة ، اذا كان يجب على الا اتبذل ، والا افقد احترامى فى

الاوساط المالية والتجارية التى بدات أزج بنفسى فيها ، وفى الوقت نفسه كان على أن أصطاد الرجال لاجعل منهم شركاء لزوجى ..

والمراة المبتذلة الرخيصة قد تستطيع ان تأخذ لنفسها بعض اموال الرجل ، ولكنها لا تستطيع أن تجعل منه شريكا لزوجها

ونجحت فيما سعيت له ، واستطعت أن أحيط نفسى وزوجى برجال أقوياء من رجال المال ..

واصبح لى صالون متواضع ، ولكنه انيق مريح ، وكان الرجال يفدون اليه وكلمنهم تجره ابتسامتى ولفتات عينى والأمل الواسع الذى اتركه له ..

***

وبين اكواب الشاى وكؤوس المارتينى ، التى كنت اقدمها ، كان زوجى يحادث كلا منهم فى مشروع شركته ، ويعرض عليه المساهمة فيها ، وكان كل منهم يتردد .. ولكن تعلقا فى وحبا فى الصالون الانيق المريح ، كان يقبل اخيرا ، خصوصا وأن زوجى — فى مبدا الأمر — لم يكن يطلب مبالغ طائلة للمساهمة فى شركته ..

وكون زوجى اول شركة له ، ونجحت الشركة ، وانتقلنا الى بيت آخر رحب ، واتسع الصالون الانيق المريح واصبح مؤثثا بأنخم الاثاث . ولم يكن الفضل لى وحدى ، بل كان الفضل هذه المرة لزوجى الذى كان أمينا على الأموال التى وضعها الشركاء بين يديه ، وكان ذكيا محظوظا فعاد لكل شريك ربح لم يكن يحلم به

واتسعت أعمال الشركة ، ثم أصبحت لنا شركة ثانية ، وثالثة ، وكلما اتسعت الاعمال كلما ازدادت أعبائى ، فقد كان على ان اضم الى زوار الصالون ، رجالا من السياسيين وكبار

الموظفين الذين تحتاج الشركة الى نفوذهم .. وكان على أن أبذل لكل منهم أملا ، وكانت حبال هذا الأمل تطول أحيانا حتى تنقطع ، ويفقد الرجل نظرته الى كامراة ويكتفى مرغما بأن يعتبرنى صديقة وسيدة صالون

وكانت ثروتنا قد أربت على المليون ، وانتقلنا الى قصر فخم فى ضواحى باريس وأصبح لنا اسم كبير ونفوذ كبير ، وأنجبت ولدى الاول « البير » .. ورغم ذلك لم يكن للحب مكان فى هذا القصر ، كما انى خلال هذه الفترة لم افكر فى ان أمنح نفسى لرجل آخر ، رغم كثرة الرجال الذين كانوا يحيطون بى ..

ولكنى كنت اغار على زوجى أو على الاصح كنت اغار على هذا النجاح الذى ساهمت فيه ، والذى يتمثل فى زوجى ..

ولم يكن يهمنى ان يتمتع زوجى بأحضان امراة اخرى فى ليلة عابرة ، ولكنى كنت حريصة على الا تختطفه امراة اخرى بعد كل ما فعلته من اجله ، وقد بلغ منى هذا الحرص الى حد ان طردت شقيقتى من بيتى وحرمت عليها دخوله ، لأنى لاحظت — بل علمت — انها تسعى لاختطاف زوجى ... ولا زالت القطيعة قائمة بيننا حتى اليوم ، رغم المحاولات التى بذلتها أمى للتوفيق بيننا ..

اقول لك هذا لتعرف ، الى أى حد كنت أحرص على زوجى ولا زلت أحرص عليه ، حتى لو ضحيت فى سبيله — بل فى سبيل النجاح الذى يمثله — بصديقك اسماعيل رغم حبى له ..

***

وفجأة وجدنا انفسنا — زوجى وانا — لا نملك سنتيما واحدا لقد ضاعت الشركات ، ولم نعد نملك سوى رأسينا .. حتى هذين الرأسين كان مصيرهما فى حكم القدر ..

حدث هـذا عقب اعلان الحرب مباشرة ، وبعد ان وصلت جيوش الالمان الى ابواب باريس ، فقد تركنا كل شيء وراءنا ونزحنا الى الجنوب مع افواج المهاجرين ووجهتنا لندن .. لنحتمى بها ..

ولكن القنصل البريطانى ـ لأسباب لا شأن لك بها ـ رفض ان يمنحنا تأشيرة الدخول الى الاراضى الانجليزية ، فاضطررنا الى أن نعود الى باريس ، واضطررنا الى أن نعود معظم الطريق سيرا على الأقدام ، نتبادل انا وزوجى حمل ولدنا « البير » ، بعد أن اضطررنا الى أن نبيع السيارة التى هاجرنا بها لنفاذ البنزين ، ولكى نقتات بثمنها .. وانى اترك لخيالك أن تتصور مدى ما عانيته فى طريق العودة ، خصوصا اذا علمت انى كنت حاملا بابنتى « هنرييت » ..

***

وعشنا فى باريس فقراء .. وأنا أكره الفقر ، واكره الفقراء ، لانى أعتبرهم اغبياء فاشلين .. ولم يكن امامنا وسيلة نستعيد بها ثروتنا ، ونعود ـ كما كنا ـ اغنياء ، الا أن نتعاون مع قوات الاحتلال الالمانية ..

لماذا لا نتعاون مع الالمان ؟ ..

لقد كنا من قبل نتعاون مع الانجليز والامريكان ، دون أن يتهمنا احد بالخيانة العظمى ! !

ثم ما ذنبى انا وولدى وزوجى اذا كانت فرنسا قد وضعت مصيرها فى يد حكومة ضعيفة متخاذلة مستهترة ، وعجزت عن أن تعد جيشا قويا ، وأمة قوية تدفع عنا الاحتلال !

ثم هؤلاء الموظفون الفرنسيون الذين لايزالون فى وظائفهم رغم وجود الاحتلال ، وهؤلاء العمال الذين لايزالون فى مصانعهم ..

الا يعتبر كل هؤلاء متعاونين مع الالمان ؟ ..

وقررنا ـ زوجى وانا ـ أن نتعاون مع الالمان ، وبدأت نشاطى من جديد لأبحث له عن شركاء .. وفى خلال اسابيع كان لى صالون متواضع ، ولكنه مريح .. وكان الصالون يضم ، هذه المرة ضباطا من الجيش الالمانى ، ورجالا من حكومة الاحتلال ..

ولا اطيل عليك ، فقد حصلنا على تعهدات كبيرة للجيش ، واصبحنا اغنياء مرة ثانية ، بل ومن أصحاب الملايين ..

ثم تحول مصير الحرب فى الاتجاه المضاد ..

وقبل أن تخرج آخر دبابة المانية من باريس ، كانت جموع من الشعب الفرنسى الغيور تصرخ أمام باب بيتنا وتقذفنا بالحجارة ..

والقيت على هذه الجموع نظرة من وراء الستائر فرأيت فى الصف الاول منها وجوها طالما احسنت اليها .. وطالما سعت الى صداقتى أيام الاحتلال ..

ولم أكن من الغباء بحيث الوم هذه الجموع وهذه الوجوه على مسلكها ، فقد كنت أعلم ان كل حجر يلقيه واحد منهم على بيتى سيطالب بثمنه رجال العهد الجديد ، وسيرفعه دليلا امام جيوش الحلفاء على انه كان من قوات المقاومة السرية ! !

***

نهايته .. كان علينا أن ندبر فرارنا ، فقد كان مقدرا على زوجى أن يحاكم بتهمة التعاون مع الالمان ، بل انه حوكم فعلا ـ بعد فرارنا ـ وصدر عليه حكم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وكان مقدرا على أنا ، أن يحلق شعر رأسى بالموسى ويطوف بى الشعب العزيز شوارع باريس للتشهير بى ، وهى طريقة التعذيب الفريدة التى ابتكرتها العقلية الفرنسية بعد أن اعجزها أن تعيد

عهد الجيلوتين ! !

واستطعنا أن نخرج من باريس ومن فرنسا كلها ، وأن نصل الى مصر .. أما لماذا اخترنا مصر ؟ .. فقد كان اختيارا قررته الصدفة وحدها ..

وقد وصلنا مصر فقراء ، فقراء للمرة الثالثة ، وبلغ بنا الفقر الى حد اننا لم نكن نستطيع أن نقدم الى الطفلين « ألبير ، وهنرييت » سوى وجبة من الطعام فى اليوم ، يتناولانها بينما ننظر اليهما ــ زوجى وانا ــ واحشاؤنا تتمزق جوعا ، وقلوبنا تتمزق شفقة على الصغيرين .. حتى اذا ما انتهيا من طعامهما ــ دون ان يشبعا ــ تقاسمنا انا وزوجى رغيفا من الخبز الحاف

وكان زوجى يطوف بالاسواق طول النهار ، يدرس الحالة التجارية ، ويحاول أن يجد منفذا لكسب عيشه ، الى أن التقى بصديق كان له عليه بعض الافضال ، فقدمه الى بعض أصحاب الشركات الذين كانوا قد سمعوا باسمه منذ كان يملك شركاته فى فرنسا ، فمنحوه منصب مستشار تجارى بمرتب لا بأس به ..

***

وانتقلنا الى بيت متواضع فى شارع ابراهيم باشا ، ثم بدأ زوجى يفكر فى انشاء شركة تحمل اسمه ، وبدات أصعد السلم من جديد ، ولم يكن قد انهكنى الصعود والنزول ، بل بدات نشطة مرحة كابنة الثامنة عشرة ..

وأصبح لى صالون ، يجتمع فيه كل مساء لفيف من رجال المال الاجانب واصحاب النفوذ المصريين .. وقد قابلتنى ، فى مبدأ الامر ، تجربة جديدة لم أكن أعلم بها ، اذ اتضح لى ان جو مصر الحار يؤثر على أعصاب الرجال ، حتى الاجانب منهم ، الى حد انهم لايستطيعون أن يقفوا عند حد معين من المرأة ، بل يكفى أن

تصادفهم ابتسامة واحدة ، ليسيروا وراءها الى آخر الطريق ..

وفى مصر اضطررت ان اخون زوجى لأول مرة .. لم اخنه حبا فى الخيانة ، ولا ارضاء لقلبى أو جسدى ، فقد كنت الى ذلك الحين امراة ليس لها الا عقل يسيطر على قلبها وجسدها .. انما خنته حبا فى النجاح ، وكى أمنح زوجى شركته الجديدة ..

خنته مع رجل من الأثرياء ، وكنا فى حاجة الى نقوده لتكوين راس المال ، ولكنه لم يقتنع بالانضمام الى الشركة الا بعد أن اصبحت عشيقته ..

وتألفت الشركة الجديدة تحمل اسما مصريا ، وعدنا اغنياء للمرة الثالثة وانتقلت الى قصر أنيق على ضفاف النيل ..

واستطعت ان أتخلص من العشيق بسهولة لم أكن اتصورها ، فقد وضعت فى طريقه امراة اخرى ، كانت ابتسامة واحدة منها كافية لأن تخلصنى منه ..

واحببت مصر ، واحببت هذا العدد الهائل من الخدم السود الذى يحيط بى ، واحببت المجتمع المصرى الكريم الضاحك دائما .. وفى مصر شيء لا تحس به فى اى بلد آخر ، وهو الاطمئنان الى المستقبل ، وهو ما كان ينقصنى طول حياتى ..

***

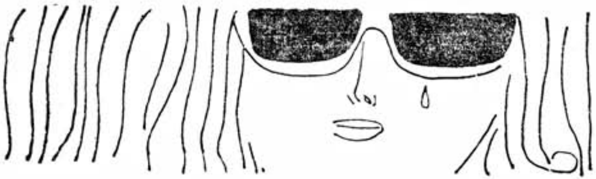
ياعزيزى احسان :

هذا هو عمرى قدمته لك فى سطور ، واعتقد اننى قد صححت كثيرا من معلوماتك عنى وعن حياتى الخاصة والعامة ، ولم أعد استحق منك كل هذا الظلم الذى حكمت به على لمجرد انى أجنبية جاءت الى مصر فى ظروف مريبة وظهرت فى المجتمع المصرى فجأة كاحدى صاحبات الملايين ..

كل ما أرجوه منك ان تقدر هذا العمر ، وهذه الأيام ، ومدى

ما تحملته خلالها قبل أن تطالبنى بأن أترك كل شىء .. وأترك كل هذه الحياة المرفهة التى تحيط بى وأترك هذا الزوج المثابر ، الذى ساهمت فى نجاحه وشاركته بؤسه ونعيمه لألحق بصديقك اسماعيل الى حيث يدعونى ..

والآن لنبدأ مع اسماعيل ، وهى قصة حب ، ظننت يوما انى أذكى من أن أومن به ..



٢

ياعزيزى احسان :

انك تعلم من هو صديقك اسماعيل ، انه انسان كل ما فيه يغيظ .. هذه الابتسامة الساخرة التى يعلقها فوق شفتيه ، وهذان الحاجبان الكثيفان المرفوعان دائما فى دهشة أشبه بالاحتقار ، وهذه الصراحة التى تبلغ أحيانا حد قلة الأدب ، وهذه الكلمات اللاذعة التى يطلقها بين حين وآخر فتصيب وتدمى ، وهذه البهدلة التى تبدو فى ثيابه ، وان كنت لا أنكر انها تليق به وتجعل منه انسانا جذابا ، ثم هذا الكسل والاستهتار اللذان يبدوان فى جميع حركاته ، وهذا الايمان الشديد بنفسه الى حد انه أصبح يعتقد ان مصائر الناس كلهم معلقة بطرف قلمه

هذا هو صديقك الكاتب المشهور الاستاذ اسماعيل ..

ولم اكن قد قرات للكاتب المشهور شيئا ــ فانى لا اقرأ العربية ــ ولم أكن سمعت باسمه الا فى فترات متباعدة ، وخلال احاديث عابرة ، عندما كان بعض الاصدقاء المصريين يتحدثون عن كتاب من كتبه ، أو عن حملة من حملاته الصحفية ..

ورأيته لأول مرة فى حفلة ساهرة اقيمت فى منزل أحد شركاء

زوجى وكان يجلس فى مقعد كبير ، وقد وضع ساقا على ساق ، وانحسرت احدى « فردتى » سرواله حتى كشفت عن ساقه المغطاة بطبقة كثيفة من الشعر الأسود ، وكان يحمل فى يده كأسا من الويسكى لايرفعها الى شفتيه أبدا ، ولا يتركها من يده أبدا .. انما يحتفظ بها ويضغط عليها بأصابعه ، كقسيس يضغط على عنق الخطيئة يريد أن يخنقها ، وهذه هى احدى نزواته ، فهو لا يشرب الخمر ، ولكنه يحمل شعارها بيده ! !

***

وكانت تلتف به بعض المدعوات ـ بل معظم المدعوات ـ وكانت الضحكات ترتفع من بينهن عالية صاخبة ، وكأن كلا منهن قد امتدت اليها يد تدغدغ خصرها ..

وشعرت بالضيق فى هذه اللحظة ، فقد كنت اجلس بعيدا مع أحد رجال البنوك ، وكنا نتبادل حديثا سمجا تتخلله بعض كلمات الغزل الرخيص الذى سئمته ، وسئمت الرد عليه بهذه الابتسامات المفتعلة وهذه اللفتات التى اجيد تحريك عينى وراسى بها .. كنت اريد أن انضم الى هؤلاء المدعوات اللاتى يضحكن ، وأريد أن التقى بشخص آخر ليس من رجال المال ولا من كبار الموظفين ، شخص كهذا الكاتب المستهتر الذى يجلس هناك ..

وعندما رأى صديقى الذى يجالسنى انى أكثر من الالتفات الى حيث يجلس هذا الكاتب ، قال فى ازدراء :

ـ انه اسماعيل ، يهرج كعادته ..

قلت : يبدو أن تهريجه يلقى نجاحا كبيرا ..

قال : تعالى نستمع له .. انه شخص غريب ، أقام من نفسه تمثالا للفضيلة الكاملة .. ويريد أن ينصب هذا التمثال فى ميدان الرذيلة ..

واتجهنا الى حيث يجلس اسماعيل ، وقدمه الى صديقى رجل البنوك ، فلم يقف احتراما كما تقضى أصول الاتيكيت ، انما اكتفى بأن هم بالوقوف .. ثم عاد والقى بنفسه فى اهمال فوق المقعد الكبير ، وقال وقد علق عينيه السوداوين بعينى :

ـ انى لم أسمع عنك ، ولكنى سمعت عن ملايينك ، وهذا اهم طبعا ! ..

وضحكت السيدات من حولنا .. كان يجب أن أعتبرها اهانة ، وأن اصفعه أو ابصق فى وجهه ، أو افعل اى شىء .. ولكنى لم افعل شيئا ، انما اكتفيت بأن ابتسمت ابتسامة خفيفة فيها بعض الازدراء ، ولمح اسماعيل هذه الابتسامة ، فاتسعت عيناه وكأنهما اتسعتا اعجابا وتعجبا ، ثم ابتسم لى ابتسامة كانت كافية لأن أغفر له اهانته ! !

***

وجلست على مقعد بجانبه وحاول صديقى أن يجلس أيضا ، ولكن اسماعيل صاح فى وجهه :

ـ لا ياسيدى .. انها « حصة » السيدات .. وانا لا أسمح باختلاط الجنسين فأرجوك أن تبتعد ..

ودهشت أن يجرؤ مثل هذا الانسان ـ الذى مهما بلغ من شهرته ، فهو لا يتعدى أن يكون كاتبا ـ على طرد مدير أكبر البنوك فى القاهرة ، من حضرته ! !

ودهشت أكثر عندما لبى مدير البنك أمر الطرد .. وابتعد ، وبدأ اسماعيل نكاته وقصصه من جديد .. والسيدات والآنسات يضحكن من حوله ، ولكنى لم أضحك كثيرا كما كنت أنتظر ، فقد أحسست ان اسماعيل ليس على طبيعته ، وان هذه النكات والقصص انما يفتعلها ليكسب قلوب النساء واعجابهن ، وأنت

تعرف ان ضعفه الوحيد هو النساء ..

ورغم ذلك فقد كنت لا اريد أن أبتعد عنه وعن مجالسته ، فأنت معه تستطيع أن تكون على طبيعتك ، وتستطيع أن تريح نفسك من مظاهر الصالونات وآدابها ، بل وجدت نفسى دون أن اشعر أخلع احدى فردتى الحذاء من قدمى ، لأنها كانت تتعبنى .. وهى أول مرة أخلع فيها فردة حذاء فى مكان عام منذ اصبحت سيدة صالون رغم ان جميع أحذيتى تضايق قدمى

***

وقبل أن تنتهى السهرة دعوت الجميع الى قضاء السهرة التالية فى بيتى ، ولم تكن هناك مناسبة لدعوتهم ، كما انى لم أتعود أن أدعو أحدا الا اذا كانت بى حاجة اليه ، ولكنى فى هذه المرة دعوتهم لانى كنت أريد أن أجذب اسماعيل الى بيتى .. ولم تكن بى حاجة الى اسماعيل ، ولكنى فقط اردت أن يشمل « صالونى » بعض رجال الأدب حتى يستكمل مظاهره ..

وعندما دعوته ، قال فى بساطة :

ــ بكل سرور .. ولكن يجب ان تعلمى انى انسان خطر لأنى لا أجيد النفاق ..

وأجبته فى بساطته :

ــ سأحاول ان اجعل منك منافقا كبيرا !

واتسعت عيناه مرة ثانية اعجابا وتعجبا ..

هكذا التقيت باسماعيل لأول مرة ، وكنت أعتقد انه لا يعدو فى نظرى انسانا شاذا يصلح لتزيين الحفلات الخاصة التى تقام فى صالونات المجتمع ، ولكن رغم ذلك فقد كنت اشعر بفرحة خفية لأنى دعوته الى بيتى ، وبت ليلتها أفكر فيه وفى شذوذه ، بل وأفكر فى الثوب الذى سأرتديه فى السهرة التالية ، وكأنى

سأرتديه له وحده ..

وكان المفروض ان تبدأ السهرة التى دعوت اليها فى الساعة التاسعة او العاشرة ، ولكن اسماعيل جاء فى الساعة السابعة وقاده الخادم الى الصالون الكبير ، وعندما خرجت اليه بعد نصف ساعة قضيتها فى استكمال زينتى ، وجدته قد قدم لنفسه كأسا من الويسكى قبض عليها بيده دون ان يرفعها الى شفتيه ، ووجدته قد ادار « البيك آب » ثم جلس فى مقعد وثير بجوار الشرفة التى تطل على النيل ..

***

ولم يقف تأدبا عندما تقدمت اليه ، انما اكتفى بأن هم بالوقوف ، بل انه لم يمد يده لمصافحتى ، وانما استراح فى مقعده وكأن هذا البيت بيته ، وكأنى كنت معه دائما ، وكأنه ليس ضيفا اتى قبل موعده بساعتين ! !

وتكلم وكأنه يتم حديثا بداه مع نفسه ، وكان يتكلم فى موضوع لم يخطر على بال ، ولا كنت اظن انه اتى فى هذه الساعة ليتحدث بشأنه .. كان يتكلم عن الشعب المصرى ، وعن شقاء هذا الشعب ، وفقره ، والظلم الواقع عليه ، وكانت اصابعه خلال حديثه تضغط على كأس الويسكى فى قوة وكأنه يضغط على عنق عدو له ، وكان حاجباه مقطبين حتى لم اعد ارى عينيه من تحتهما ..

انه انسان آخر غير اسماعيل الذى رأيته بالأمس .. انسان لا يضحك ولا يهزل ، بل يحترق ، واكاد اشم رائحة اللهب تنبعث من اطرافه ..

ووجدت نفسى اجاريه فى حديثه ، فقلت له :

ــ انى اخاف هذا الشعب المصرى ، لأنه يكره الاجانب ! ؟ ..

وأجاب فى سرعة :

ـ انه لا يكرههم ، ولـكنه يكره الطريقة التى يثرون بها على حسابه ..

ونظر فى عينى قائلا :

ـ انى لا أكرهك ، ولـكنى أكره ملايين زوجك !

وابتسمت ، وكأنى رضيت بأنه لا يكرهنى وان كان يكره ملايين زوجى ، ولـكنى عدت أدافع عن هذه الملايين قائلة :

ـ ان هـذه الملايين من حق كل رجل ذكى مجد قادر على العمل ..

ـ ان لصوص الخزائن أذكياء ومجدون ، ورغم ذلك فليس من حقهم أن يستولوا على ما فى الخزائن !

***

وأحسست انى اهنت ، وأحسست بالدماء تغلى فى عروقى وتندفع الى راسى ، فصرخت فى وجهه :

ـ انى لست مسـئولة عن الشـعب المصرى ولا أرى مبررا للحديث عنه الآن ، كما لا أرى مبررا لحضـورك قبـل الموعد بساعتين ! !

ولم يتحرك من مكانه ، وانما ابتسم ابتسـامة ارتسمت على احد جانبى شفتيه ، ولا أدرى ان كانت ابتسامته رثاء للشعب ، أم رثاء لنفسه ، أم رثاء لى !

وسكت فترة ثم مد يده ووضعها فوق يدى فى رفق قائلا :

ـ انه الموضـوع الذى اتحدث فيه كلما خلوت الى نفسى ، وانا اشعر وأنت بجانبى انى مع نفسى ! !

وسحبت يدى من تحت يده ، وقلت :

ـ ولـكنك لا تعرفنى ..

ـ انى أعرف عنك كل ما يهمنى .. أعرف عنك هذا الجبين

العريض الذكى ، وهاتين العينين اللتين عذبتهما صـور الحياة فبكتا دائما بلا دموع ، وهـذه الابتسامة الرقيقة الطيبة التى تحاول عبثا أن تبدو لاهية عابثة .. انى أعرفك كما لم يعرفك احد ، أعرفك زاهدة فى كل هذا الثراء الذى يحيط بك ، وأعرفك تخفين قلبك فى صدرك خوفا من أن ينبض فيصدم ، لأنه صدم مرة من قبل .. أليس كذلك ؟ .. ثم أعرف انك تستطيعين أن تفهمينى وأن تريحى أعصابى المضطربة ، وأن تدلينى على الطريق الذى أسـير فيه وقد وقفت حائرا فى مفترق الطرق .. انى أستطيع أن أعتمد على ذكائك واحساسك وطيبتك وليس عندى ما أقدمه لك سوى شبابى .. وهو لا يساوى شيئا !

***

ووجدت نفسى تائهة بين هذه الـكلمات ، ثم وقفت متبـاطئة واتجهت الى الشرفة المطلة على النيل حيث بدات حسابا عسيرا بينى وبين نفسى تجمع فيه الماضى كله .. هل انا حقيقة زاهدة فى كل هذا النجاح والثراء الذى ساهمت فيه وتعذبت من أجله ؟ هل انا امراة طيبة بعد كل ما فعلته ؟ .. هل لى قلب يستطيع أن ينبض بالحب ؟ ..

وكان قد جاء ووقف خلف ظهرى دون أن يتكلم ، فاستدرت له لأشركه فى هذا الحساب القائم بينى وبين نفسى ، فاذا بى بين ذراعيه .. واذا بى أبكى ..

بكيت لأن قلبى قد نبض بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه جامدا لا يتحرك .. وقد نبض بقوة لم تتحملها أعصابى فبكيت !



٣

ياعزيزى احسان :

كل هـذا حدث فى اليوم الأول ، ولا اريد ان اصف لك كيف بدات السهرة التى دعوت اليها ليلتها ولا كيف انتهت ، فانى لم اشعر بها ولم اشعر بأحد من المدعوين اليها ، ولا بد انى أسأت الى الـكثيرين منهم ، ولا بد ان كبار الشخصيات التى تعودت منى المجاملة والابتسام قد غضبت ، فانى لم ابتسم لأحد ، ولم اجامل أحدا ، الا هو ..

وحدث اسوأ من هذا ..

لقد همس فى اذنى عندما كنت اراقصـــه ، فاذا بى اختطف معطفى ، ثم اتســـلل معه الى الخارج ، واترك بيتى ومن فيه ، بما فيهم زوجى .. ولم افكر ساعتها فى الاحراج الذى يمكن ان أسببه لزوجى .. بل لم اتذكر أن لى زوجا ، فقد كنت ليلتها كفتاة فى السادسة عشرة من عمرها تلتقى بأول رجل فى حياتها..

وعندما تحس امراة فى الخامسة والثلاثين بشعور فتاة السادسة عشرة .. فقد انتهت كامراة ، وعجزت عن ان تكون فتاة ! ..

اين ذهبنا انا واسماعيل ؟ ..

لقد اخذنى الى الأحياء البلدية لنشاهد مجد الشرق فى ضوء القمر ــ كما كان يقول ــ وخيل الى ليلتها انى ارى القاهرة لأول مرة ، وانى انتقلت مئات الســـنين الى الوراء لأعيش فى عصر هارون الرشيد وليالى الف ليلة وليلة ، وكانت المـآذن المشرعة فى ضوء القمر ترفعنى معها الى السماء ، فأحس انى لأول مرة قد رايت الله .. رايته فى الحب ! !

***

وسرنا طويلا على اقدامنا ، وتحدثنا كثيرا فى اشياء لا اذكرها ، وكان ليلتها يستطيـــع أن يطلب اى شىء ، وكنت استطيـــع ان امنـــحه كل شىء .. ولـكنه لم يطلب شيئـــا ، ولم امنحه شيئا ، فقد كنا نعلم ان العمر امامنا طويل ..

ولـكنه قبلنى ، وقبلته .. واقسم لك انه اول رجل اقبله منذ خسرت الحب الأول .. فانى لم اقبل حتى زوجى ، انما كنت ادعه وادع الجميع يقبلوننى !

وعدت الى بيتى عنـــد مطلع الفجر نشـــوى ، وكان زوجى ينتظرنى .. فصـــدمت عند ما رايته ، صدمت لا خوفا منه ، ولـكن لأنى تذكرت ان لى زوجا ..

ولم يقل لى شيئا .. ولم يسألنى شيئا .. وانما اكتفى بأن قال : « ان الباشا قد غضب لاهمالك له وانصرافك عنه » .. ثم ادار ظهره واختفى فى غرفته ..

ولم اكن اعتقد ان غضب الباشا يستطيع ان يجر كل هـذه المصائب ! !

ولم اهتم كثيرا يومها ، بغضب الباشا ــ وهو احد اصحاب النفوذ الذين تحتاج اليهم الشركة ــ فقد كنت عرفت جيـــدا اخلاق كل « باشا » فى مصر ، وعرفت ان ابتسامة واحدة تكفى

لتجر اى واحد من اذنيه ، وكأسا واحدة تكفى لـكى ينهار أمامى ويخور مستسلما كالثور الذبيح !

ولـكن هذه الابتسامة الواحدة لم أستطع أن أمنحها للباشا ، رغم أنى قضيت حياتى كلها فى ابتسامات زائفة ، وهـذه الكأس الواحدة لم أستطع أن أتبادلها معه رغم كل ما شربته من كؤوس النفاق ..

***

لم أعد أستطيع ان أبتســـم لأحـــد الا لاسماعيل ، ولم أعد أستطيع ان أشرب كأسا الا معه ، بل لم أعد أرى الا وجهه ولم أعد أسمع الا صوته ..

كنت معه كل يوم ، وكل ساعة ، ولا ادرى متى كان يكتب ؟ ومتى كان يذهب الى مكتبه ؟ ومتى كان يعـــد هـــذه الحملات الصحفية التى تثير مصر ، فقد كنا نلتقى ظهر كل يوم .. ثم لا نفترق الا فجر اليوم التالى ..

وكنا نلتقى غالبا فى مسكنه المثير الشاذ ، الذى كان يسميه « الاستديو » والذى اتخذه فى بيت عتيق بحارة « درب اللبانة » بحى القلعة ، حيث يسكن كثير من الفنانين البوهيميين وأصحاب المذاهب المتطرفة المطاردين من البوليس ..

كنت لا تكاد تدخل البيت حتى تهب عليك ريح رطبـــة من الماضى السحيق ، ولا تكاد تخطر فيه حتى يخيل اليك انك تخطر الى قبر مظلم يهز مشاعرك ويخلع قلبك ، ثم لا تكاد تصل الى حجرات الاســـتديو حتى تحس انك انتقلت الى عالم آخر .. عالم عبقـــرى هادىء ، تذوب فيه أعصـــابك حتى لا ترى الا احلامك ، وتصمت الأصوات من حولك حتى لا تسمع الا حفيف انفاسك وهى تهيم بين الجدران تبحث عما تريد ..

وقد أثث هذا « الاستديو » على الطراز العربى ، لا شىء سوى الوسائد المنتشرة على الارض فوق بساط داكن اللون ، وارائك عريضة غطيت بحرير مذهب تلمع خيوطه فى أضواء قناديل الزيت المدلاة من السقف ..

انك لا تستطيع ان تجلس ، فليس هنـــاك مكان للجلوس .. انما كل مكان يدعوك الى الاستلقاء ، ويدعوك لأن تلقى بأعضـــاء جسدك فى اهمال لتريح نفسك منها ، وتريحها منك !

***

وقد أحببت هذا الاستديو الذى تدخل اليه من فوهة قبر ! احببت حتى مظاهر الفقر المدقع التى تحيط بحى القلعة وتعلو وجوه سكانه ..

أنا التى كرهت الفقر وعشت حياتى أقاومه ، وأدفع زوجى فى طريق الثراء ، ليكون لى مثل هذا القصر الـكبير الذى يطل على النيل ، أصبحت أتمنى أن أقيم حياتى فى حى القلعة ، على أن أقيم فيه مع اسماعيل ..

وأنا التى دفعت أيامى كلها ليكون لى هذا العدد من السيارات التى تنقلنى من الباب ، أصبحت أتمنى الا يكون لى الا باب واحد أجلس أمامه القرفصاء كهؤلاء النسوة الفقيرات ، على أن أجلس فى انتظار اسماعيل ..

أنا التى كرهت كل من يشتغل بيديه ، واعتبرته فاشـــلا ، لا يستحق الشفقة ، أصبحت أتمنى أن أضع يدى فى « طشت الغسيل » واغسل ثياب اسماعيل ، كما كنت أرى نســـاء حى القلعة يفعلن ..

الى هذا الحد أحببته ..

أحببته حتى نسيت نفسى ، وولدى ، وزوجى ، وثرائى ..

وجمعت خمسة وثلاثين عاما من عمرى ، ومنحتها له ، واذبتها بين ذراعيه ، وانا التقط انفاسه بشفتى واعب منها ، وكأنه الرجل الوحيد الذى كان لى والذى منحته نفسى ..

لا .. لم امنحه شيئا ، فقد كان كل شيء مقدرا ، طبيعيا لا منح فيه ولا عطاء .. فهو لم يتعمد ان اعطيه ، انما وجدنا نفسينا نتبادل جسدينا وقلبينا ..

ولكن القدر كان اقسى علينا من أن يتركنا فى هدوء جميل ..

لقد بدأ حال الشركة يسوء ، فانى خلال الأشهر الستة الأولى التى عرفت فيها اسماعيل لم أظهر فى مجتمع من المجتمعات .. ولم ادع احدا من الشركاء او من اصحاب النفوذ الى بيتى .. لا لشيء الا لأنى قد نسيت ان هناك قوما يجب ان اقدم لهم ابتسامات الرياء وكؤوس النفاق ..

***

ولم يعترض زوجى خلال هذه الأشهر على غيبتى الدائمة .. وعلى عودتى كل صباح عند مطلع الفجر ، ولم يسألنى شيئا ، فقد تعود دائما الا يتدخل فى حياتى الخاصة ، وتعود أن يعتمد على ذكائى ، وتعود الا يكون بيننا سوى المصلحة المشتركة فى أن نعيش أغنياء ..

الى ان كان يوم ..

وكنت أهم بالخروج لتناول طعام الغداء مع اسماعيل .. فاذا بزوجى يدخل عائدا من مكتب الشركة ، ثم يلقى بين يدى ورقة صغيرة لا تزيد فى حجمها عن ورقة « الكوتشينة » ولا تحمل فوقها سوى بضعة أرقام ..

ولكنها كانت ارقاما خطيرة ..

ان خسارة الشركة بلغت فى صفقة واحدة حوالى مائتى الف

جنيه ، ومعنى هذا انه لم يبق سوى خطوة واحدة .. ثم الافلاس ! ..

وكانت هذه الخسارة بفضل مجهودات « الباشا » ، الذى رفضت أن اجامله ورفضت أن أستمر فى منافقته ، وقطعت عليه هذه اللذة الصبيانية التى كان يشعر بها عندما يراقصنى فيضغطنى الى صدره ، أو عندما يجلس بجانبى فيضع يده على يدى ، أو عندما يهمس فى اذنى بكلمة غزل رخيص ، فأتظاهر بأن الدماء قد ارتفعت الى وجنتى ، وأقنعه انه مغازل ماهر خطير !

***

ولم اناقش زوجى طويلا فى هذه الخسارة ، بل احسست بنفسى أفيق من حلم جميل ، وبدات اتذكر وجودى ، وجهادى العنيف الذى بذلته لتكون لى هذه الثروة التى تكاد أن تضيع ، وتذكرت القصر الذى أعيش فيه ، وتذكرت مستقبل ولدى ، ودوطة ابنتى ، بل انى ساءلت نفسى :

« هل كان اسماعيل يحبنى لو لم يكن لى كل هذا الثراء ، ولو لم يرنى وسط هذه المظاهر الباذخة ؟.. وفى هذه الثياب الأنيقة التى ارتديها ؟ » ..

تذكرت وتساءلت .. ثم اتجهت فى صمت الى التليفون .. ودعوت « الباشا » الى العشاء فى بيتى !

ولم أحاول أن اتصل باسماعيل فقد خشيت ان اضعف امام صوته ، انما اكتفيت بأن ابعث له برسالة مع السائق أعتذر فيها عن موعدنا ..

ومن يومها بدأ الكفاح بينى وبين اسماعيل للاحتفاظ بحبنا .. كنت اريد أن احتفظ بحبه واحتفظ معه بثرائى ..

وكنت قد قضيت اسبوعا لم أر فيه اسماعيل ، وتفرغت

لاسترضاء « الباشا » وجمع الشركاء وأصحاب النفوذ حولى من جديد ، ولكنى أؤكد لك انى لم أنس اسماعيل يوما واحدا خلال هذا الاسبوع ، بل لم يغب عن قلبى ساعة واحدة .. وكنت أعود الى فراشى بعد سهرة مملة أمضيتها مع هؤلاء الرجـال فأحس بشفتى تحترقان وتنـاديان فى ظمأ شـفتى اسماعيل ، وأحس بجسدى يتلوى ويصرخ طالبا ذراعى اسماعيل ، ثم أحس بقلبى يدق كأنه يدق على باب « الاستديو » متخبطا بين جدران حارة « درب اللبانة » ..

وكنت دائما أبحث عن وسيلة أجر بها اسماعيل الى الطريق الذى أسير فيه .. وتساءلت :

ـ لماذا لا أجعل منه رجلا من رجال الأعمال الصالحين ؟ ! ..

***

ان اسماعيل له اسم رنان مشهور ، وقد استطاع فى سنوات قصيرة أن يجعل من قلمه سلاحا يخيف به الساسـة والحكام ، ورجال الأعمال أيضا ، وان كلمة منه لا يمكن أن يرفضها وزير أو حاكم استرضاء له واتقاء لقلمه ، فلماذا لايؤدى بعض الخدمات الصغيرة للشركة التى لن تكلفه الا كلمة هنا ، ورجاء هناك ؟ !..

ثم ان اسماعيل ، وان كان يحس بآلام الشعب ويترجمها بقلمه الا انه يكره الفقـر ، ويكره أن يعيش فقـيرا كما يعيش عامة الشعب ، وهو لا يملك الا ما يدفعه له قلمه ، وقد يصل دخله الى مائة أو مائتى جنيه فى الشهر ، ولـكنى أعلم ان هذا الدخل التافه لا يكفيه ليعيش كما يريد أن يعيش ، ولا يكفيه ليجارى هذا المجتمع الثرى الذى أصبح بحكم شهرته عضـوا فيه .. فكيف يرفض بعد هذا أن يكون « صديقا » للشركة ، اذا علم ان هذه « الصداقة » ستجعل منه ثريا منعما ؟ !

وفى نهاية الأسبوع ، وكنت قد استعدت للشركة مركزها بفضل استرضاء « الباشا » ، دعوت اسماعيل الى حفلة ساهرة كنت أقيمها فى قصرى لعدد كبير من الأصـدقاء والصديقات ، وكنت أخشى الا يجىء ، ولـكنه جاء ..

ورأيته كما رأيته لأول مرة ، هذا الانسان الذى يفيظ ، وهذه الابتسامة الساخرة التى يعلقها فوق شفتيه ، وهذان الحاجبان الـكثيفان المرفوعان دائما فى دهشة أشبه بالاحتقار ..

ولم يبد عليه أثر لهذا الأسبوع الذى قضاه دون أن يلتقى بى ، بل أحنى رأسه فى برود عندما حيانى ، ثم بدأ يطوف بالمدعوين يوزع عليهم نكاته القاسية ، وكلماته الصريحة التى تدمى ، ولم يرحمنى أنا أيضا من صراحته وسخريته ، فقد رآنى أبتسم لأحد المدعوين ، فاقترب منى ليقول بصوت مسموع :

ـ هذه الابتسامة كانت تكون جميلة لولا ما فيها من نفاق !..

وسمعنى أهنيء أحد الوزراء على خطاب كان قد ألقاه يومها فقال بصوت مسموع أيضا :

ـ لماذا لا تهنئينه على صفقة تصدير الارز ! ..

وغضب الباشـا الوزير وانصرف عنى وعنه ، أما أنا فقـد تحملته صـابرة ، الى أن انتهت السـهرة وبدأ المدعوون فى الانصراف ، فضغطت على يده أدعوه لأن يبقى بعـد انصراف المدعوين ، ويبدو انه كان قد قرر البقاء حتى لو لم أدعه ..

***

وانفردنا سويا ، بعد أن دخل زوجى لينام ..

وكان يجب أن ألقى بنفسى بين ذراعيه ، وأذوب بين أنفاسه بعد هذا الظمأ الذي قاسيته أسبوعا كاملا ، ولـكنى لم أفعل ، فقد كنت ساعتها سيدة أعمال ، وكنت أريد أن أحدثه فى مشروع

الخدمات التى يمكن أن يؤديها للشركة .. وقد كرهت نفسى فى هذه الساعة ، وكرهت ان يكون لى عقل وانا مع اسماعيل بعد ان تعودت الا اكون معه سوى قلب وجسد ..

وجلسنا فى الشرفة المطلة على النيل ، وبدات احدثه فى مشروعى وأمنيه بالثراء والمجد والنفوذ ، وعندما انتهيت ، سحب ابتسامته الساخرة من فوق شفتيه وقال فى هـدوء انه يرفض المشروع ، ويرفض أن يزج بنفسه أو باسمه فى اعمال الشركات ، لا تعففا منه ، فانه يحب ان يكون غنيا ، ويحب أن يملأ جيوبه بالمال لينفقه على نزواته الشاذة ، ولكنه يرفض لأنه لايستطيع ، وقد حاول من قبل أن يقوم بمثل هذه الأعمال فى ساعات كان يضعف فيها أمام اغراء الدنيا ، ولكنه فشل ، وهو يفشل فى كل عمل يحاول ان يقوم به دون ان يؤمن به .. والى ان يؤمن بأعمال الشركات فلا جدوى فى أن يزج بنفسه فيها ، وخير له ان يستسلم لاحساسه الوطنى الذى يطغى على تفكيره ، وان يستسلم لحقده على الاغنياء الذين يحاول أن يحطمهم بقلمه ..

قال كل هذا فى هدوء ، ثم قام لينصرف ..

***

ونظر كل منا فى عينى الآخر ، ورغم ذلك فقد انحنى وطبع قبلة خاطفة على وجنتى ثم اختفى

ولم اكن قد فقدت الامل منه بعد ..

وعدت اتردد عليه فى « الاستديو » فى فترات متقطعة ولساعات قصيرة ، وكان كل منا يحاول أن يسترد الآخر ، ولكن عبثا ، فقد جعلتنى الصدمة التى اصابت الشركة افيق من حلمى الجميل ، ولم استطع بعد ذلك ان اغمض عينى لأعود الى دنيا الاحلام ..

وكنت لا ازال الح عليه ان يعاوننى فى اعمال الشركة حتى أجعل منه رجلا آخر .. غير هذا الفنان الثائر البوهيمى الحاقد على الدنيا حتى ليخيل اليك انه شيوعى .. رجلا أستطيع ان أحتفظ به الى جانبى دون أن يضطرنى الى هجر دنياى فى سبيله ..

كانت معركة بين المال والفن وقد قاوم الفن حتى آخر لحظة ولم تفلح جميع حيلى لأنتصر عليه ..

وكنت قد بدات أغرقه فى هدايا ثمينة حتى اذيقه طعم المال والثراء عله يلين .. أهديته مرة سيارة ، فاذا به يقبلها شاكرا ثم يتبرع بها لاحدى الجمعيات الخيرية تحت اسم « فاعل خير » ، واهديته مرة ساعة ذهبية فاذا بى اراها بعد أيام فى يد « زكية » احدى نساء حى القلعة ، واهديته مرة ست حلل وعشرات من اربطة العنق والمناديل « اللينون » والقمصان فاذا به يوزعها على زملائه الفنانين الذين يسكنون حوله

وخابت جميع حيلى ، وبدا يبتعد عنى بروحه شيئا فشيئا وانا اراه يبتعد دون أن استطيع شيئا ..

***

وسألته يوما :

ـ لم لا تريد أن تكون غنيا ؟

قال ـ انى غنى بأصدقائى الفقراء !

قلت ـ انك تستطيع ان تشترى الأصدقاء بالمال ..

قال ـ ان المال قد يشترى الأصدقاء ولكنه لا يشترى الصداقة ..

قلت ـ ولكنك انت نفسك فى حاجة الى المال

قال ـ انى فى حاجة اولا الى فنى الذى يعيش به قلمى

قلت ـ قد تجمع بين المال والفن

قال ـ لا ، فانى أستمد الفن من الحرمان الذى لا يراه الاغنياء لأن عيونهم من ذهب لا من نور ..

قلت ـ ولكن كثيرا من الفنانين أغنياء !

قال ـ ان هؤلاء يبيعون انتاج الفن لا الفن نفسه .. وانت تريديننى أن أبيع فنى ونفسى ، تريدين أن تبيعى عقلى وقلبى ، تريدين ان اكون منافقا ، وأن اكون ظالما ، وأن اكون طامعا ، وتريدين ان أتستر بقلمى على صور من حق الفن أن يبرزها ، وتريدين أن احس بنفسى ولا أحس بالمجتمع الذى اعيش فيه .. وهذا ما لا أستطيع !!

قلت ـ انى لا اريدك الا أن تعيش منعما بجانبى !

قال ـ انى لا أستطيع أن انعم وحدى ، على حساب الناس ، ولا أستطيع أن أنعم بالثراء لأنى مصاب بمرض يسمى الضمير !

ولم أقنعه ، ولم يقنعنى ، ورغم ذلك كنا نلتقى ، وكنا نحاول أن نتبادل قلبينا وجسدينا ، كما كنا نفعل فى شهور العسل الاولى فكنا نفشل ونخيب ..

الى أن كان يوم ..

وجاءنى اسماعيل فى بيتى بلا موعد ، وكان ثائرا ، ثم القى بين يدى بضعة أوراق ، وهو يقول بصوت لم يستطع ان يجعله خفيضا :

ـ أهذه هى الشركة التى تريدين أن أقدم لها خدماتى !؟

وقلبت الأوراق أمام عينى ، فاذا بها بعض المستندات التى اعتاد اسماعيل ان يحصل على مثلها أخيرا ، وكانت مستندات تثبت على الشركة تلاعبا فى احدى الصفقات ، وتكفى ـ لو أراد اسماعيل ـ لخرابى وخراب زوجى وخراب الشركة ..

***

ونكست راسى صامتة ، بينما كان اسماعيل يروح ويجىء وهو

يتكل فى صخب عن حقوق الشعب ، وقوته ، وفقره ، وعن العبيد والاسياد ، وجرائم الشركات !

والتفت اسماعيل نحوى ، فرأى فى عينى نظرة هلع ..

نعم .. لقد كنت هالعة مما يستطيع أن يفعله اسماعيل بنا ..

ووقف قبالتى صامتا ، وهو يحاول أن يسترد انفاسه ، ثم فجأة ، اختطف الأوراق من بين يدى وأخرج علبة ثقابه واشعل منها عودا قربه من الورق فاندلعت فيه النار ، وقبل أن يأتى على آخر قصاصة القى بها على الارض واطفأها بقدمه ، فتركت فى البساط رقعة سوداء لا تزال فيه حتى اليوم ، ولم أحاول أن اخفيها ، لأنها آخر ما بقى لى من اسماعيل !

وخرج ..

ولم التق به بعدها ، ولم أعد أراه الا فى بعض الحفلات الساهرة وكان دائما يتعمد ان يتجنبنى وكأنى أذكره برقعة سوداء فى حياته .. هذه الرقعة السوداء التى ترك مثلها على بساط الصالون فى قصرى ..

ولم يكتب اسماعيل شيئا عن صفقات الشركة ..
ولكنه كتب قصة ..